مجلة الابتسامة

نسخة منسقة

فانتازيا فرعونية

محمد عفيفي

www.ibtesama.com

تصميم الغلاف : علامة تعجب


كتاب الهـ
فانتازيا فرعون
محمد عفـ

فريق العمل بقسم تحميل كتب مجانية





معتز السلال

محمد عفيفي

فنتازيا فرعونية

دار الهلال

البحث عن إله

- ١ -

نوع من الآلهة

ذات يوم كنت أشعر بالغيظ الشديد من جدى الفرعونى ، مندهشا من ذلك الرجل الذى استطاع ان يبنى الاهرام بكل ما تحتاج اليه من علوم الحساب والهندسة والفلك ، والذى قدم للبشرية أول تقويم شمسى نسير عليه حتى اليوم ، والذى ابتكر أول لغة مكتوبة فى التاريخ ، ثم سمح لنفسه مع كل ذلك بأن يتورط فى تلك العبادات المضحكة للأبقار ، والكباش ، والعجول ، والتماسيح ، والقطط السوداء . نعم شعرت نحوه بالغيظ الشديد وأوشكت أن أكرهه ، لم يحل دون ذلك الا ما تذكرته فجأة من ان هذا الجد المتحضر كان له هو الآخر جده الخاص ، وان الخلط بين الرجلين نوع من الغباء لا يسأل عنه أحد سواى .

عبر آلاف السنين قبل بدء التاريخ المكتوب كانت القبائل تتوافد من هنا وهناك على الوادى الخصيب ، قبائل بدائية تعيش على التقاط الغذاء من الارض والشجر ولا تعرف شيئا عن الزراعة ، ولكل قبيلة منها ـ كما هو الحال عند كافة القبائل البدائية ـ اله من الحيوان . . طوطم مقدس تعتبره القبيلة من الناحية الاجتماعية رمزا لها وعنوانا لوحدتها ، وترى فيه من الناحية « الفلسفية » تجسيدا حيا للقوى الغيبية التى

بطريقتهـا السحرية الغامضة تسـيطر على ماجريات الامور . وشيئا فشيئا ولاسـباب معقـدة بدأت تلك الحيوانات المقدسة تتحول من طواطم الى آلهة ، متمشية فى ذلك مع ما يتميز به الذهن البشرى المتطور من ميل الى التجريد .

ولانها آلهة خاصـة بالقبائل المختلفة التى انتشرت على ضفاف النيـــل فقد كان طبيعيا أن نفاجأ بتلك القائمة الطويلة من الآلهة الحيوانية ، من بقرة يعبدونها فى دندرة الى تمساح يعبـدونه فى الفيـوم الى قطـة يعبدونها فى الزقازيق . كل قبيلة جلبت معها حيوانها المقدس ونصبته الها على المنطقة التى حلت بها من البلاد ، وذلك قبل أن يتم توحيد القطرين وتظهر الحاجة لاله عام على مستوى المملـكة .

اذن فقـد ظلمت جـدى المتحضر بانى الاهرام حين نسبت اليه تلك الآلهة الصبيـانية ، وما هى الا تركة مثقلة خلفها له جده البدائى من فجر التاريخ . ولست أشك فى ان جـدى المتحضر قد نظر الى تلك الآلهـة بالاحتقـار اللازم ، وان كلمة « الالحاد » قد ترددت أكثر من مرة فى ذلك العهد القديم .

غير اننى فى دفاعى عن هذا الجد المتحضر لا أحب ان أظلم جده البدائى ، وانى لاظامه ظلما شـديدا اذا أنا حكمت عليه بعقليتى العصرية وخاصة فى نظرته الى الحيوان . وليس من شك فى انه كان فى حالة من الذهول التام أمام الظاهرة الحيوانية العامة . فهذه الحيوانات الغبية البكماء ــ هكذا لابد أن يكون قد قال لنفسه ــ

كيف أمكن أن تقلدنى بتلك الصورة المزعجة بأن تأكل وتشرب وتنام مثلى ، وأن تلعب وتهاجم وتناور وتفر وتختبىء مثلى ، ثم تتحاب وتتعاشر وتتناسل وترعى صغارها مثلما أرعى صغارى ؟ الجواب الطبيعى بالنسبة لرجل بدائى مثلى هو ان هـــــذه الحيوانات بمنتهى الاختصار ؛ جنتها موش خالصة ! هى ملبوسة بقوى خفيــة تحركها وتلهمها ، بل هى مجرد تجسيد مادى لتلك القوى الغيبيـــة الخارقة ، التى تحبنى فى بعض الاحيان فتدر لى اللبن من ضرع البقرة ، وتكرهنى فى أحيان أخرى فتدس لى السم فى فم الثعبان .

ولا شك ان البقرة كانت كائنا محببا جدا الى كرجل بدائى ، فهل يمكنك أن تخطرنى بالسبب الذى من أجله كانت هى الحيوان الوحيد - مثل أختها الجاموسة - الذى رأى أن يتخصص فى تزويدى بذلك الشراب اللذيذ المفيد الذى هو اللبن ، والذى بشىء من المجهود أستطيع أن أحوله الى زبد وجبن وزبادى ؟.. ماذا يرغمهمـــا على ذلك سوى انها كائن مقدس أرسل الى من السماء ؟ وانظر اليهـــا حيث تجلس تحت شجرة الجميز وهى تمضغ ، أليس غريبا للـــكائن أن يمضغ دون أن يكون أمامه أى طعام ؟ أو ليس هذا دليلا جديدا على ما فيها من قوة سحرية مستمدة من عالم الغيب ؟

هكذا لابد أن يكون الرجل البدائي قد فكر ، وفكره هذا تجسد فيما بعد فى البقرة الالهية حتحور أو هاتور ، الهة الجمال والحب والموسيقى ، التى تحمل السماء كلها فوق ظهرها المقدس. واذا كنت لاتوافق على فكرة

بقرة تحمل السماء فاسأل نفسك عن ذلك الثور الذى قالت لك أمك فى هذا القرن العشرين انه يحمل الارض فوق أحد قرنيه ، فاذا تعب نقلها على القرن الآخر ، متسببا بذلك فى حدوث الزلازل . وفى اعتقادى ان بقرة تحمل السماء على ظهرها وهى تقف على الارض اقرب الى العقل بكثير من ثور يحمل الارض على قرنه دون أن يقف على أى شيء ! وفى دندرة الى يومنا هذا يحكون لك عن بقرة مسحورة تحرس كنزا ما ، فاذا أضفناها الى الثور المذكور فلا بد انك تدرك مدى قسوتنا حين نطالب جدنا البدائى بأن يكون أكثر حكمة من أحفاده المعاصرين .

وفى منطقة الفيوم عبدوا التمساح تحت اسم «سبك» وهو الاصل اذا كان يهمك الامر فى تسمية بعض المدن بسبك الاحد ، وسبك الثلاث ، وسبك الضحاك. واذا كنت اليوم ترى التمساح نائما كالقتيل فى حديقة الحيوان فلا شك ان نظرتك له كانت تتغير لو انك نزلت للاستحمام فى النيل ففوجئت بفخذك محشورة بين فكيه ، وما أظن انك كنت تستكثر عليه فى تلك اللحظة شيئا من التقديس أو تتورع عن استرضائه ببعض التلاوات . ومرة أخرى قبل أن تسخر من عقلية جدك أرجوك أن ترفع بصرك الى ذلك التمساح المضحك المعلق على شراعة بابك أو باب جارك استجلابا للبركة ودفعا للشر عن البيت ، فلا شك انك توافقنى على ان تمساحا صاحيا يمكنه ان يكون أقدر على تحقيق تلك الكرامات من تمساح ميت !

ونفس الامر ينطبق على الثعبان الذى قدسوه ورسمه الملوك على تيجانهم تيمنا بقدرته على نفث السم فى وجوه الاعداء . على الارض يسعى ـ كأنه مسحورـ بغير أقدام تحمله ، يتلوى ويتلوى وبين حين وآخر يخرج لهم لسانه ، ولسانه بخلاف كافة الالسن مشقوق الى فرعين . فاذا صاد الفريسة فهو يبتلعها بدون أن يمضغها ، كرة كبيرة تغوص فى جسمه الطويل ثم تذوب. أما اذا عض واحدا منهم فتلك نهايته المحتومة ، متى كان للانسان أن يبرأ من عضة اله ؟ وانه ليعترض طريق الاله رع نفسه خلال رحلته اليومية عبر السماء كل مساء ، وذات يوم قرصه قرصة كادت تقضى عليه لولا أن لحقته الساحرة اللطيفة ايزيس . ويبدو أن تلك اللدغة كانت شديدة الى درجة ان أثرها ظل باقيا حتى يومنا هذا فى عقول بعض المواطنين ، اذ نجح العوام عندنا وفقا لحيلة ذهنية غريبة فى ان يحولوا الثعبان الى مصدر للخير ، زاعمين ان لكل بيت من البيوت ثعبانا يتولى حراسته . فاذا لاذ بشق من شقوق المنزل فالامر يحتاج الى استدعاء رجل نصف مبروك هو الرفاعى ، وما كان الثعبان ليخرج الا استجابة لبعض التلاوات ذات الصبغة الدينية ، ويا حبذا لو أكدوا ـ للثعبان ـ ان صاحب البيت اسمه محمد ! وكل هذا لاينبغى بالطبع أن ينسينا ذلك الدور الخطير الذى قيل انه لعبه ذات يوم فى تقرير مصير البشر ، يوم أغوى حواء بالاكل من الشجرة المحرمة فطرد الانسان من الجنة .

وحيوان آخر كان ضروريا أن يواجهه العقل البدائي

بشحنة عاطفية خاصة ، وذلك هو الخنزير الذى عمد أجدادنا لسبب أو لآخر ـ لقبح منظره فى أغلب الظن ـ الى تقديسه بطريقة عكسية ، جاعلين منه رمزا للشر وقارنين اياه بالاله البغيض « ست » الذى قتل الههم المحبوب اوزيريس .

فاذا ما لمسه واحد منهم عفوا وجب عليه ان يسارع بالقفز فى النهر المقدس ليتطهر ، حتى ولو تعرض لهبرة غير متوقعة من الاله سبك !

ولا ينبغى لنا بالطبع ان ننسى الالهة القطة المسماة باستت ، التى رأيت بصفتى من أهل الشرقية أن أفرد لها فى مقبل الصفحات بابا خاصا .

واذا كانت حاجة العبادة على المستوى الاقليمى قد سمحت بوجود واستمرار هذا النوع من الآلهة الحيوانية العتيقة فقد كان الامر مختلفا مع الآلهة العامة الرسمية.

فلم يكن ممكنا لاله رسمى مثل رع أن يواصل حياته الالهية فى هيئة صقر خالص ، بل تطلب الامر أن يجمع

فيه بين رأس الصقر وجسم رجل عادى ، كنوع من الحل الوسط الذى طالما ارتاحت له النفسية البشرية فى كافة العصور . وأتى بعده آمون اله طيبة ، فخطا

خطوة أخرى الى الامام ، اذ بدا للناس فى هيئة رجل عادى لا يمت بأية صلة الى الحيوان . ومرة أخرى نحاول أن نخفف من لومنا للأجداد على هذا التشخيص

للآلهة ، اذ يجب أن نذكر أن الذهن البشرى يميل الى التدرج أكثر من ميله الى الطفرة ، لاسيما اذا ارتبط الامر بالديانات والعقائد . واذا كانت طفولة العقل

البشرى تشبه طفولة العقل الفردى فلا بد انك تذكر كيف كان يذكر أمامك اسم الله ــ وأنت طفل صغير ــ فتتخيله فى هيئة عملاق جبار أو رجل عجوز أشيب الشعر . ولعل من العوام والسذج من يعيش ويموت وفى ذهنه عن الخالق تلك الصورة الطفولية .

واله آخر فى هيئة رجل هو أوزيريس ، أحب الآلهة الى الشعب دون أن يكون الها رسميا . رب الخضرة والنماء والاخصاب ، الذى ينبثق النيل العظيم من عرق يديه . سيد الحقول الخضر وسيد النبيذ الفياض ، سنابل القمح تنبت من جسمه وأعواد الشعير . اذا اكل الآكل فانما يأكل من لحمه المبارك ، واذا شرب الشارب فما ذلك النبيذ الذى يشربه الا قطرات من دمه المقدس .

وفجأة حدثت الطفرة التى ندر أن تحدث ، عندما الهم اخناتون بألهه آتون الذى لا علاقة له بأى من الانسان أو الحيوان ، أول اله مجرد تفتق عنه الذهن البشرى ، وأول دعوة للتوحيد قبل الف سنة من أول كلمة نطق بها نبى عبرى .

***

هكذا انسحبت آلهة زمان العتيقة لتنزوى فى أركان التاريخ المظلمة ، وعبر آلاف السنين من التفكير الدينى نجح أجدادك فى أن يبلوروا فلسفة كاملة يفسرون بها ظواهر الخلق والحياة والموت ، ووصلوا الى أفكار عديدة يمكنك أن تعتبرها ــ بالرغم من التفصيلات الساذجة المحيطة بها ــ ارهاصا بالكثير من الافكار التى يؤمن

بها المتدين المصرى مسيحيا كان أو يهوديا أومسلما ، واليك بعض الامثلة :

توصلوا الى مثلا الى فكرة الاله الذى خلق نفسه بنفسه توطئة لأن يخلق الكون ، وهى فكرة نادت بها بعد آلاف السنين كافة الاديان المشار اليها .

***

توصلوا الى فكرة الثالوت ، ممثلة فى بعض الآلهة المحلية وفى الثالوث الاكبر المكون من أوزيريس . وايزيس وحورس ، فالمسيحيون كما تعلم يؤمنون بالاب والابن ، والروح القدس . ويقول المستشرق الفرنسى اميلينو ــ كما تخبرنا الدكتورة نعمات أحمد فى كتابها الملهم «شخصية مصر» ــ ان روح الله القدس فى دستور الايمان المسيحى انما يقوم مقام الالهة الام فىعلم اللاهوت المصرى .

***

اقتربوا جدا كما يقول المؤرخون المسيحيون أنفسهم من فكرة مسيحية أخرى هى فكرة حدوث الخلق بالكلمة وقد كان هذا المعنى يتردد على الدوام فى اللاهوت المصرى القديم . ولعلنا لا نجانب الصواب اذا شبهنا هذه الفكرة بما نردده نحن المسلمين من ان الله يقول للشيء كن فيكون .

***

آمنوا ــ وبشدة مزعجة ــ بالحياة بعد الموت وبخلود الروح . كما آمنوا بيوم الحساب وما فيه من ثواب

المحسن وعقاب للمسىء ، وسترى تفصيل ذلك فى فصل مقبل .

***

من كل ذلك ترى ان أجدادك لم يكونوا بلهاء كما يحاول البعض تصويرهم ، وانه من الظلم الشديد أن نحاكمهم على خطايا أسلافهم البدائيين . ولو انك درست تاريخهم الدينى لوجدت ان كثيرا من الافكار والقيم التى تؤمن بها اليوم توشك أن تكون مجرد حصاد لنبتة زرعها العقل الفرعونى ومابرحت تنمو عبرآلاف السنين .

- ٢ -

بعد عمر طويل

اذا أنت مت فى مصر الفرعونية ـ أو منعا للتفويل عليك اذا أنا مت ـ فان أول مايحدث هو تلك العاصفه الهوجاء التى تجتاح الحى من صوات النسوة ، الامر الذى يدل على ان مصر القديمة ليست قديمة بدرجه كبيرة ! ومع الصوات يكبشن ما يتاح لهن من الطين يلطخن به وجوههن اعرابا عن حزنهن ، ويا حبذا بشىء من النيلة الزرقاء ليتناغم لونها الازرق مع ما فى وجوههن من سواد الطين . ثم ينطلقن فى الطرقات كالمجانين مولولات لاطمات الخدود وقد شممن ثيابهن حتى استبانت منها الصدور ، وهو ما لابد يجعل من وفاتى فرصة طيبة للبصاصين من مراهقى الحته .

ثم يعدن الى البيت ليحبسن انفسهن فيه مواصلات عملية اللطم والتعديد ، غير ناسيات أن يرسلن فى استدعاء عدد من الندابات المحترفات اللواتى لايمكن بدونهن أن يكتسب الموقف صفته الرسمية الكاملة . ويستمر هذا الضجيج نحوا من خمسين يوما أو اكثر وهى المدة اللازمة للانتهاء من تحنيطى قبل أن أودع ـ ان شالله اللى يكرهنى يارب ـ فى غياهب القبر .

وبتمام تحنيطى ألف فى كفن من الكتان قد يبلغ طوله خمسين مترا ، وحاول انت أن تحول هذا الرقم الى

ما يقابله من « ادراجنا » العصرية . ثم أوضع فى نعش من الخشب والنعش يوضــع على محفة كبيرة يجرها ثوران ، ويبدأ الموكب الجنائزى الذى يتصــدره حملة المبــاخر والزهور والاوانى الحاوية للعطور والزيوت المقدسة والميــاه . وخلف هؤلاء تسير فرقة النــدابات الاجيرات وهن يلطمن الخدود ويعددن ويذكرن مناقبى، وانى لأعجب كيف يجدن لى من المنــاقب ما يغطى ذلك المشوار الطويل. أما ورائى فتسير اليتامى والثكالى من أفراد أسرتى ، وما زالت وجوه النسوة بين السوداء والزرقاء ، ورب امرأة تنحنى بين الحين والآخر لــكى تلتقط حفنة من التراب وترشها فوق رأسها زيادة منها فى بهدلة نفسها من أجلى ، ومرة أخرى يشققن ثيابهن حتى تستبين منها الصــدور ، الامر الذى يوحى بأنهن قد وجدن أحسن فرصة للتعرى المشروع فى عصر ما قبل الديكولتيه الفاضح .

ووراء الجميع يسير عدد من الخدم وقد حملوا الاوعية التى تضم ماسوف أحتاج اليه فى حياتى المقبلة من طعام وشراب وبيرة ، وأرجو ألا يكونوا قد نسوا السودانى الملح على سبيل المزة . وعدد آخر من الخدم يحملون ما يسمى بالاوعيه الــكانوبية وهى التى تحتوى على ــ لامؤاخذة فى دى الــكلمة ــ مصارينى وأعضائى الداخلية اذ ان هذه الاعضاء يجب أن ننزع من الجسم قبــل تحنيطه وتحنط بمفردها توطئــة لدفنهــا فى القبر مع صاحبها .

ويواصل الموكب سيره « لاحظ ان منــاقبى بدأت

تتكرر بشدة » حتى يصل الى شـاطىء النيـل الغربى حيث توجد مدينة الموتى . وكاهن يرشنى بالماء المقدس وكاهن آخر يبخرنى ، وثالث يوشـوشنى ويلقننى التعاويذ اللازمة لتجهيزى للحياة الجديدة. وثور فاخر يذبحونه ويأكلونه على روحى ، والآكلة من النـدابات لا تسى بين قطعة وأخرى أن تفقع صوتا حيانيا لـكى تثبت ان اللحم المشوى لم يلهها عن ذكر مناقبى .

ها هو ذا التابوت ينزل الى القبـر مع ملحقـاته من الاوعية ، وها هو ذا القبر يقفل على الى الابد . وفى الخارج يقفون لوصـلة أخيرة من اللطم على الخـدود والتعديد ، وقبـل أن ينصرفوا لا ينسون اتخاذ اجراء أعتقد انه يتنافى بشدة مع كل هذه المظاهر الحزينة ، وذلك بأن يكسروا بجانب القبر قلة . فهى كما قيل حيلة سحرية تمنعنى من أن أغادر القبـر وأعود الى البيت لازعاجهم ، وهى حيلة لا يبعد أن تكون قد استخدمتها أكثر من مرة وأنت تودع حمـاتك على محطة السكة الحديد .

هى يعودون الى البيت وأنا أشرع فى رحلتى الجديدة الى مملـكة أوزيريس فى العالم السفلى ، ويا لها من رحلة طويلة رهيبة مضنية ، بين جزر من اللهب يجب أن أعبرها وبحيرات من ماء مغلى ، وبين عشرات من البوابات التى يجب أن أجتـازها متحديا عشرات من حراسها الاشداء القساة .

وفى النهـاية أجد نفسى فى قاعة المحاكمة الاوزيرية الرهيبة التى تفحص عن امرى وتصـدر على حكمهـا

الابدى. على رأس المحكمة يتربع أوزيريس اله الموتى ، ومن خلفه يقف انوبيس وايزيس ونفتيس . وحون اوزيرس يجلس اثنان وأربعون قاضيا قيل انهم من آلهة الدرجة الثانية وقيل انهم أرواح شريرة تمثل الاقاليم الادارية للبلاد . وغير بعيد منهم تقف غولة رهيبة لها رأس تمساح وبطن أسد ومؤخرة سيد قشطة واسمها

ـ يا مامى ! ـ الملتهمة . وذلك لانه ما أن يصدر حكم المحكمة ضدى حتى تنقض على وتروح وكلانى هم .. هم .. وما بين هذه الغولة والارواح الشريرة التى تملأ المحكمة يمكنك أن تدرك مدى العبقرية التى استخدمها الكهنة الخبثاء فى ارهاب الميت المصرى .

واما عن الاجراءات فتبدأ بالشيء الطبيعى وهو أن أتقدم من منصة أوزيريس لكى القى بكلمة نفاق مناسبة .

ـ الولاء لك أيها الاله العظيم ، يا سيد قاعة الصدق المزدوجة .. لقد حضرت ياسيدى لكى أشاهد جمالك . ولكى أحمل الاستقامة من أجلك من بعد الخطيئة ..

وكلمات أخرى من هذا النوع ثم أشرع فى تلك العملية العسيرة بعض الشيء وهى أن أبرىء نفسي من اثنتين وأربعين خطيئة . وحيث ان كل اله من الآلهة الصغار المحيطين بأوزيريس متخصص فى خطيئة معينة فاننى أشرع فى مخاطبتهم واحدا واحدا :

ـ تحية ياطويل الخطا ، أيها القادم من ايونو .. أنا لم أرتكب اثما .

ثم أتوجه الى الذى يليه :

ـ تحية يا ملتهم الظلال .. أيها القــادم من جوف المغارة .. أنا لم أسرق أحدا .

ثم أنتقل الى الثالث :

ـ تحية يامزدوج الشر .. أنا لم أرتكب الزنا ..

ومتجاهلا تلك البسمة الخبيثة التى ترتسم على وجه مزدوج الشر أنتقل الي الرابع والخامس وما بعدهما ، بين واحد اسمه سارق النار وآخر اسمه مهشم العظام وثالث اسمه والعياذ بالله ملتهم الامعاء ، قائلا أننى لا قتلت ولا سرقت ولا زنيت ولا غششت الناس ولا طففت المــكيال ولا هاجمت الانسان ولا آذيت الحيوان ، ولا كنت غضوبا ولا أثرت عراكا ولا رددت سوءا ولا زدت في الحديث المعاد ، ولا ســخرت من مليكى أو من اله مدينتى ، ولا تسرعت فى الحكم ولا صممت أذنى عن الحق ، ولا رفعت صوتى ولا سعيت الى تفرقة ، ولا أتلفت أرضا محروثة ولا لوثت المياه .. وفى النهاية يكون من الطبيعى أن أقف أمام أوزيريس صارخا بالهستيريا المناسبة :

ـ أنا طاهر ! أنا طاهر ! أنا طاهر !

فينظر أوزيريس الى نظرة الهية خاصة ، وهذا يتوجه فى صمت الي حيث نصبت موازين رع ، فى احدى الكفتين يضع ريشة هى رمز الصدق ، وفى الاخرى يضع قلبى الذى أعجب كيف يوجد هناك وهو يدق كالطبــل فى صــدرى . الميزان يتأرجح وأنا أرتعد خوفا ، فى تلك اللحظات الرهيبة التى تحدد مصيرى الى الابد .. اما أن أظفر بالخلد فى جنات أوزيريس حيث الربيع الدائم ،

واما أن أغيب فى رأس التمساح وبطن الاسد لكى ألفظ من مؤخرة سيد قشطة ! ومن ثم فأنا أهمهم من أعماق قلبى المعذب بدعاء علمونى اياه وأنا صغير :

ـ يا قلبى الذى أتى من أمى .. يا قلبى الذى ينتمى الى كيانى .. لا تقف شاهدا ضدى .. ولا تكن معاديا لى أمام سيد الموازين .

وسـيد الموازين هو الاله تحوت الذى يقف بجانب الميزان فى لا مبالاة .

والاله تحوت هـذا روتينى ، يداعب الميزان بيـده على صوت تلمظ رهيب من الغولة الجائعة . فيا لهـا من فرحة تهز كيانى من الاعماق عندما يأتينى صـوت سيد الموازين وهو يتنحنح بالوقار اللازم قبل أن يقول:

ـ فى الواقع لقد حاكمت قلبه فوجدت انه غير ذى خطيئة .. لن نعطيه للملتهمة بل سنعطيه من الخبز الذى أمام أوزيريس .

ولقمة مقدسة تلقى الى فأنقض عليها كالمسعور، شاكرا من أعماق قلبى الموزون تلك الظروف السعيدة التى أرسلتنى الى المحكمة فى يوم تحت يحتاج فيه الاصلاح بهذه الشدة . وبينما تتابعنى عيون الملتهمة بنظرات الحقد أتحنجل أنا بخفة متجها الى جنات عدن حيث الخضرة الدائمة والرزق الابدى الوفير .

***

ولجنة أوزيريس ميزة خاصـة هى اننى أستطيـع مغادرتها فى أى وقت وأن أعود منها الى قبرى كلما طلع ذلك فى دماغى . وأنا أفعل ذلك غالبا فى المواسم والاعياد،

حيث أجلس فى قبرى متفرجا بالسخرية المناسبة على المناحة الدائرة فى الخارج بين أفراد أسرتى . فهم بالطبع لا ينسون ان يطلعوا على كل عيد وهم يحملون الكعك والفطائر التى يأكلون منها على روحى ويوزعون ما فاض على الفقراء . وهم يعرفون اننى هناك وهم فرحون بى. الا أولئك الذين يظنون بى السوء ويعتقدون اننى أرقد فى جوف الفولة الملتهمة وأننى محيت من الوجود.

وأرجو أن تكون حياتى بما فيها من فضائل أعتز بها ورذائل أتبرأ منها ، ثم وفاتى وجنازتى ودفنى ومحاكمتى وخلودى ، أرجو أن يكون كل ذلك قد أثبت عندك ما قلته من البداية من أن مصر القديمة ليست قديمة بالقدر الذى يتصوره البعض ، وانه أيا ما كان العنوان الذى تقول بطاقتك الشخصية انك تسكن فيه فأنت فى واقع الامر لست تسكن الا فى مصر القديمة .

- ٣ -

باستت نو

لا أحد يعرف على وجه التحقيق كيف ولا متى تم للفراعنة استئنـاس القط ، بعد الدهور الطويلة التى عاشها فى حال من الحرية الوحشية فى برارى الدلتا . ومن ثم فلست أجد ما يمنعنى من اللجوء الى الاجتهاد الشخصى فى تفسير الامر ، سارحا بخيالى الى ليلة من ليالى الصيف خرج فيهـا الطفـل حوريس ليلعب فى البرارى المذكورة ، ومن خلال أعواد البوص رأى بؤرتين خضراوين تلمعان فى الظـلام فخاف وجـرى نحو أمه ايزيس .

ـ ايه ده يا ماما ؟

ـ ده قط ياحبيبى ..

هكذا قالت له ايزيس وهى تطبطب عليه ، فقال :

ـعاوز منه ...

ـ بس كده يا روحى ؟

وبعد همهمة سحرية موجزة بسبست للقط ، فقال نو ، وأقبل وقد طارت عنه آثار الوحشية لكى يتمسح فى ساق حوريس . ولست أدرى كيف فشل المؤرخون فى العثور على هـذا التفسير السهل للطريقة التى تم بها استئناس القط المصرى القديم .

واذا تركنا الاجتهاد الشخصى جانبا ، فقد كان عند

الفراعنة آلهة لها جسم سـيدة ورأس قط واسمها باستت ، ومعنى هـذه الـكلمة كما يقول المفسرون « روح الالهة ايزيس » . وهى الهة قديمة جدا أسهم خوفو بنفسه فى بناء معبد لها فى مدينـة بوباسطى التى تعرف اليوم بتل بسطة من أعمال الشرقية . اذ كانت تلك المدينة هى المركز الرئيسى لعبادة السيدة باستت ، ولعلها ما ظهرت فى هذا المكان من الشرقية الا كنوع من البديل الفرعونى لدعوة القطارات الى الفداء . وكان القط كما زعم عباده رمزا مجسما لاله الشمس رع ، فيه يتمثل هذا الاله كما تقول متون الاهرام بأرواحـه السبع . وحيث ان حدقة القط تتسع بانتظام مع دورة القمر ــ هكذا لاحظ العبـاد ــ فهو على ذلك صـاحب مجد مزدوج يسـتمده من كل من الشمس والقمر . وكانت ذروة ذلك المجـد فى الاسرة الثانيـة والعشرين عندما قرر امير بوباسطس أن يتحول من أمير الى فرعون للبلاد باسم شيشاق الاول ، فتحول القط بدوره من اله محلى الى اله للبلاد كلها ، وبالعظمة المناسبة سار يتبختر فى الطرقات بين أكداس الطعام التى يقدمونها له كلما قال : نو ..

غير ان المجـد كما تعلم شيء لايدوم ، ومع التطور كان محكوما على بسبس أن يتحول من اله الى حيوان عادى ، الامر الذى لا أشك انه قد وصل به فى بعض الاحيان الى حافة الانهيار العصبى . ولـكنه بالطبـع ما برح أن تأقلم واستكان للوضع الجديد . ولعل هذا التمسح الذى نعرفه عن القطط ما هو الا نوع من العتاب

الصامت والتحسر الذليل على المجد الذى سلبناه اياه .

ولكن هل فقد القط المصرى كل مجده حقا ؟ أمر مشكوك فيه جدا بدليل عشرات العقائد والعواطف التى نختصه بها من دون سائر الحيوانات ، وحسبك انه الحيوان الوحيد الذى احتفظ الى يومنا هذا بسبع أرواح . الاف السنين مرت على موت اله الشمس رع وما زالت أرواحه السبع تسكن جسم القط المصرى المعاصر . فاذا ما عضك كلب فذلك لانه مسعور ، واذا ماعضك حمار فذلك لانه حمار ، وأما اذا ما هاجمك قط فذلك لان فيه روحا شريرة أو لانه والعياذ بالله عفريت متنكر فى صورة قط .

وفى أوائل هذا القرن العشرين قالت لى أمى : أن القط الاسود يجلب النحس ، وحذرتنى من أن أضرب القطط بصرف النظر عن لونها بعد غروب رع – اعنى غروب الشمس . فاذا جلس القط على حجرى وبدأ يحدث صوتا فهى تؤكد لى انه يردد بعض التلاوات ذات الصبغة الدينية ، الامر الذى يحتم على الا ألقى به على الارض فجأة كى لا أفسد صلاته .

وهكذا أتت على أوقات كنت أجلس فيها بالساعة وهذا الوغد على حجرى لايريد أن يتحرك ، مواصلا قراءته وكلما مددت يدى لارفعه زام وأفزعنى . فاذا سمعت أمى قطة تجعر فى الطريق باحثة عن الذكر فهى تفسر ذلك العواء بأن القطة تقول : داود ، مضفية بذلك على الموقف – أمى لا القطة – لمسة عبرية لا أجد فيها مناسبة واضحة .

والقط هو الحيوان الوحيد الذى يفترض الناس فيه حاسة أخلاقية يجب أن يرتفع على الدوام الى مستواها. ولذلك فهم ينزعجون بشدة عندما تخطف القطة قطعة من اللحم من الطبق ، مثبتة بذلك انها قطة خرجت عن جادة الاخلاق وانحرفت وصارت قطة حرامية تستحق ان يوقع عليها حد السرقة . وقطة من هـذا النوع - وسوداء ايضا - أذكر كيف طاردتها أنا وأمى بالمقشات فى أنحاء البيت حتى أجبرناها على أن تقفز من نافذة الدور الثالث ، عالمين ان الامر لن يضرها وان السقطة لن تفقدها أكثر من روح واحدة أو اثنتين فيبقى لهـا خمس . وكذلك يقول الناس عنك اذا لم تحفظ الجميل انك مثل القطط تأكل وتنكر ، معربين بذلك عن تخيلهم للقط المثالى الذى تعطيه قطعة اللحم فيقول لك ألف شكر يابيه ربنا ما يحرمنا منك !

ولقد تتجسم هذه المشاعر فى نفوس بعض الناس حتى تحول القط من حيوان عادى الى كائن غريب تمتزج فيه كافة صفات النمر والذئب والخنزير بما ترمز اليه من شراسة وغدر ونجاسة . وانى لاذكر رجلا من هـذا النوع أتى يوما يزورنا ، وبينما هو مشغول بالحديث دخلت قطتنا السوداء دون أن يشعر بها ووقفت تتفرج عليه وتستمع اليه . فيبدو ان شيئا من كلامه اعجبها « أنا أعترف انها قطة سـيئة الذوق نوعا » واذا بها تغافله - دون أن تكون قد رأته من قبل - وتقفز على فخذيه لـكى تجلس على حجره .

هى بالطبع كانت تتوقع من الرجل أن يفرح بهـذه

اللفتة الكريمة وأن يشرع فى التحسيس عليها والاستماع الى شيء من قراءاتها ، ولكن الذى حدث هو العكس تماما . اذ صرخ الرجل فى فزع شديد وقفز من مقعده قفزة كادت تكلفنى ثمن نجفة جديدة للصالون ، ودفع القطة عن حجره دفعة قوية ألقت بها على الارض بعد أن هبشته فى فخذه هبشة مناسبة . ولمدة دقيقة جلس الرجل ينظف بنطلونه بيده وهو يهمهم بتلاوات لم أتبينها ولكننى أثق بأنها معادية لجنس القطط ، ثم شرع يشرح لنا ــ وهو يلهث ــ أن أبغض مخلوقات الله الى نفسه القطط ، وان ذلك لا يرجع لا قدر الله الى ان عنده عقدة نفسية أو ماشابه ذلك ؛ وانما لثقته التامة بأنه بين كل سبع أرواح للقطة يجب أن توجد خمس شريرات على الاقل .

وفى مقابل هذا النوع اللاقططى من الناس خذنى أنا الذى لا يمكن أن أطيق الحياة بدون قطتين أو ثلاث فى البيت.. نعم ، هى تنونو بالليل فى بعض الاحيان وتزعجنى ، وهى على الدوام تطاردنى وتكعبلنى كلما فتحت باب الثلاجة ، بالاضافة الى انها تمنعنى من ان أمصمص العظام حق المصمصة ، ولكننى بالرغم من كل ذلك لا أحب أن أعيش بدونها .

ويقول المؤرخون ان مصر لم تصدر القط الى أوربا كفصيلة حيوانية فحسب وانما كاله أيضا ، وان الالهة الرومانية « ارتميس » ما هى الا صورة محورة للالهة المصرية باستت . ومن ثم فقد انتقل القط الى الاوربيين مقرونا بتلك الشحنة النفسية المليئة بالعواطف المتناقضة

بين حب له وخوف منه ، وكثيرا ما شاهدت العيادات النفسية هناك حالات لاناس يعانون من العقد القططية الحادة .

وفى ذات يوم راح واحد من الخواجات يمارس عادة غريبة بعض الشيء ، وهى دعك ظهر القطة بشدة حتى يقف شعرها وتنفش وتصبح أشبه بالقنفذ . فليس من شك فى ان هذا الرجل كان يعانى من ذلك المزيج المتناقض الذى أشرنا اليه من الحب والكره ، وانه كان يظن انه يداعب القطة فى حين انه يعذبها . ذلك الرجل هو المخترع اديسون الذى يقال انه قد استلهم من تلك العلاقة بين دعك ظهر القطة ووقوف شعرها نظرية خاصة بالمغناطيسية والكهرباء وطلع منها بفكرة المصباح الكهربائى . فاذا صح هذا فيبدو أن رع كان الها للشمس والكهرباء أيضا ، وهو دليل على ما أردده طوال هذه الاحاديث من ان مصر كانت دائما مصدر الاشعاع !

الفراعنة والجنس

- ١ -

ذكر وأنثى

من نافذة القطار الذى يقعقع بك وسـط حقولنا الخضراء لابد انك رأيت أكثر من مرة ذلك الطفل الشقى الذى يقف على السكة الزراعية وقد رفع ذيل جلبابه الى أعلى لكى يعرض عليك وعلى سائر ركاب القطار بعض أسراره الخاصة ، عالما انك لن تستطيع أن توقف القطار المسرع لكى تنزل وتضربه ، ومستبعدا أن تبلغ بك الحماسة التربوية درجة ان تلقى بنفسك من القطار فى سبيل تحقيق تلك الغاية .

ذلك الطفل ليس موجودا فى مصر فحسب ، بل وفى أوربا أيضا ، بدليل ماكتبه عنه السيد فرويد مستشهدا به كمثل من الامثلة العديدة التى تؤيد وجود مايسميه بالميل الفطرى للاستعراض الجنسى . وهو فى تلك المرحلة الطفولية ميل طبيعى لا غبار عليه ، الا انه مع الكبح الشديد وفى ظروف خاصة يمكن ان تحدث له حالة من الثبوت تحول صاحبه حين يكبر الى رجل مريض بداء الاستعراض . ورب عذراء تسير فى طريق مقطوع فتفاجأ برجل يعرض عليها من شئونه الخاصة ما كان يحتاج فى عرضه الى تصريح من الجهات المسئولة ، معرضا نفسه بذلك للسجن والبهدلة . وهو مرض يصيب الكثيرين ومن بينهم الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو

الذى اعترف بأنه كان يستسلم لهــذا الداء فى الاوقات التى لم يكن مشغولا فيها بالتمهيد للثورة الفرنسية .

مثل هذا الرجل الذى قد يوجد فى أى مكان لا أظن انه قد وجد قط فى مصر الفرعونية ، وذلك لسبب ممعن فى البساطة وهو ان الـكائن الفرعونى كان يعيش فى حال من الاستعراض المتواصل !

لان الملابس لم تظهر فى رسوم الطفل الفرعونى الا فى احيان نادرة جدا ، وفى معظم الاوقات كان الطفــل والطفلة يسيران بين الناس عاريين كما ولدتهما أمهما .

يوما بعد يوم تحت شمسنا المشرقة يتبخر منهما ذلك الميل الفطرى للاستعراض ، فلماذا يحدث ذلك الثبوت المرضى الذى سلفت الاشارة اليه ؟

ويوما بعد يوم يطلع أولئك الاطفال العراة على الفروق التشريحية بين الذكر والانثى ، فلا يمكن أن يكون قد حدث للطفــل الفرعونى ما حــدث لاخيه المتحضر بين الحين والآخر من صدمة الاكتشاف ، ومن التورط فى تفسيرات طفولية مؤذية . ولا بد انهم قد وجهوا للـكبار من حولهم أسئلة كثيرة ، ولا بد ان أولئك الـكبار قد أجابوهم بالصراحة المناسبة لذلك الموقف العارى . وبينما كانوا يلعبون ويمرحون فى الحقول والحدائق الخضراء لا يمكن أن تكون ألعابهم قد خلت من الخلفية الجنسيــة التى لا مفر منها فى تلك الظروف ، الامر الذى يستبعد معه ان تكون كلمة الـكبت قد عرفت طريقها الى القــاموس الهيروغليفى . فأغلب الظن وفقــا لذلك انه لو خطــر لفرويد أن يفتح عيادة نفسية أو طبية فى منف لاضطر

أن يرهن كنبته الشهيرة فى أقل من عام .

فاذا كبر الطفل الفرعونى وصار غلاما فهو لا يكلف بارتداء شيء أكثر من ازار صغير يشبه الجونلة التى لا تتدلى فى معظم الاحيان الى أبعد من الركبتين .. وذلك طبعا اذا كان معه ثمن الجونلة . فاذا تصادف ان كان غلاما فقيرا أو فلاحا أو راعيا أو صيادا فليس يطلب منه أكثر من حزام تتدلى منه رقعة من الكتان ما نجحت قط — وفقا لما نراه فى الرسوم — فى ان تخفى شيئا من حقائق الحياة . وأما الصدر فهو شيء لم يفكر المصرى القديم فى اخفائه فى أى يوم ، فرعونا عظيما كان أو صائد سمك . ولن تجد فى آثار الامم القديمة نظيرا لتلك الاكتاف العريضة والسواعد المفتولة ، سواعد الشعب الذى قطع ونقل ونحت ورفع وسوى مليونين ونصف مليون من الاحجار العملاقة لكى يبنى بها هرما

وتكبر الطفلة العارية ويبرز فى الصدر نهداها فيدفعون اليها بمئزر تلفه حول جسمها بادئا فى كثير من الاحيان من تحت النهدين لا من فوقهما ، أشبه شيء ببنات تاهيتى كما تراهن فى رسوم جوجان. وحمالتان رفيعتان ترفعان هذا الفستان وتمسكانه حول الجيد الاسمر النحيل ، وحزام يشد تحت النهدين الفخورين كأنما هو خط يضعه كاتب المقال تحت احدى العبارات الهامة ! والفستان نفسه ضيق أشد الضيق ، خفيف كما تقول الرسوم حتى ليوشك ان يكون شفافا. فاذا كانت البنت خادمة — معذرة أعنى شغالة — أو ساقية أو راقصة فهى لا تخرج من حيث حجم الثياب عن كونها ازهاصا

بمرحلة كسائية مقبلة تسمى ـ ربنا يديك طولة العمر ـ بالمرحلة الميكروبيكينية .

كانوا يحبون الجسم البشرى بشدة هؤلاء الخبثاء بناة أولى الحضارات ، وكانوا يرون قدرة الآلهة ممثلة فى ذلك الجسم بما فيه من امكانيات خالقة . فخصوبة الجسم مثل خصوبة الارض أمر مطلوب ومحترم ويوشك ان يكون مقدسا . ولقد مات اوزريس فكرهوا أن تموت معه خصوبته ، وصوروا مومياءه فى تلك الصورة التى تجعله ـ حتى بعد الموت ـ مستعدا للاخصاب فى أية لحظة ! والى جانب أوزيريس كان هناك الاله « مين » الذى ترى صوره فى معبد الراسيوم وغيره ، والذى صوروه بدرجة من الصراحة التشريحية طالما أرسلت الدم الغزير فى وجه أكثر من عانس أو سائحة عذراء اذا تصادف وجود شىء من هذا النوع .

وفى رسوم الاله « مين » هذا ، يجب أن يظهر نبات الخس الذى نظر اليه أجدادك بنوع من التقديس لما نسبوه اليه من قيمة جنسية خاصة وعاملوه كمعادل نباتى للجفرين .

وفى هذا الجو المتحرر لابد أن الغلام الفرعونى كان يفاجأ بشدة فى ذلك اليوم العصيب ، يوم يقولون له انه يجب أن يسلم نفسه لعملية الختان . فهى قديمة جدا تلك العادة كما ترى ، ويمكنك أن ترى الصورة التى رسموها له ـ ان شئت ـ اذا خطفت رجلك الى معبد « خونس » بالكرنك . وهى عادة يغلب الظن أن المصريين استعاروها ممن حولهم من الشعوب السامية

فى وقت سحيق قبل عصر الاسرات . وعلى العكس من العبريين الذين حتموا اجراء تلك العملية بعد الميلاد بقليل كان المصريون يرون تأخيرها الى سن العاشرة أو مابعدها ، لتكون بمثابة شهادة للطفل بأنه قد شب عن الطوق ودخل فى زمرة البالغين . ومن المفسرين من يصف تلك العملية بأنها نوع من الرمز لعملية تاريخية قديمة سابقة وهى ذبح بعض الاطفال على سبيل القرابين . وثمة رأى آخر يقول انها بديل لعملية الاستئصال الكامل التى ربما يكون بعض الآباء البدائيين قد حكموا بها على أولادهم الذكور خوفا منهم على اناث القبيلة .

ومهما كان الامر فلست أجد صعوبة فى تخيل النظرة الماكرة التى لابد انها تراءت فى عين الكاهن وهو يقبل بالمشرط على ضحيته وكأنه يقول :

ــ أشكر آمون على اننا سنكتفى باستئصال تلك العينة الصغيرة ، وأذكر دائما اننا نستطيع حين نشاء أن نستأصل كل شىء !

غير ان الكهنة قد وجدوا من الذرائع ماجعلهم يعفون البعض من تلك العملية على سبيل الاستثناء . وهذا يذكرنى بما حدث للسيد « بونا براحته » عندما حاول خلال الحملة الفرنسية أن يشهر اسلامه تقربا للمصريين، فلما قيل له ان تلك العملية شرط من الشروط المطلوبة قال : الا دى ! وسرعان ما وجد من يقول انها عملية ثانوية ، لايمكن أن تؤثر على صحة دين الجنرال الورع.

غير ان هذه العملية لايمكن أن تكون قد آذت الفتى الفرعونى كثيرا ، اذ كانت كما رأيت تؤجل الى السن

الذى يستطيع فيه أن يفهم ما يساق اليه من تبريرات أو على الاقل يتظاهر بالفهم • ولا شك انها كانت هينة فى نظره عند مقارنتها بصورة شراذم الاغوات الذين يتثاءبون على أبواب حريم الملك والنبلاء .

والغلام الذى يدخل فى زمرة الكبار يبدأ مثلهم بالحب والهيام، ومن أعماق روحه الفرعونية المعذبة يهتف قائلا:

ـ على فراش الضنى أرقد طول يومى .. يعودنى الجيران والاطباء وما ينفعنى أحد منهم ، آه لو تأتى حبيبتى معهم ، فهى التى تعرف دائى وفى يدها دوائى .

نفس الاعراض المرضية التى نعرفها عن العاشق العصرى ، ولنستمع الآن الى هده العاشقة المهجورة .

ـ ضاع ! ضاع ! ضاع . آه يا حبى الذى ضاع .. ان حبيبى يمر أمام بيتى فيشيح بوجهه عنى... أزين له نفسى وما يرانى . فيا الهى هل ضاعت صلواتى وقرابينى هباء ؟ كم كان حلوا حبيبى ، أحلى من مذاق العسل .. قبلاته على شفتى وعلى صدرى وشعرى .. اذا مت ياحبيبى فاحضر الى قبرى وقبلنى .. فسوف تردنى قبلتك الى الحياة .

***

وعاشق آخر محروم يتأوه قائلا :

ـ آه لو كنت خاتما فى أصبع حبيبتى .. آه لو كنت جارية عندها حتى أرى لون أعضائها كل يوم .. آه لو كنت غسالة لديها حتى أنعم بملامسة كافة ملابسها.

وبنت فرعونية « مضروبة » تقول لحبيبها :

ـ آه ما أجمل أن أستحم فى النهر على مرأى منك . . لـكى تبصرنى وقد بلل المـاء فستانى الجميل فالتصق بجسمى المشوق .

فهى لم تكتف بالفستان الضيق الشفاف فأرادت له ان يلتصق بثنايا جسمها أيضا .

وأناشـيد أخرى كنت أحب أن أسـوقها اليك لولا ما يشيع فيها من ملامسات ومداعبات جسدية جريئة لايمكنك أن تحتملها وقد فقدت تلك الاعصاب الفرعونية الحامية .

وانى لأقرأ هذا الـكلام عن الفراعنة فأرى شبها كبيرا بين هذه المواقف الجنسية الجريئة وبين ما نشـاهده اليوم فى أوربا وأمريكا من نزعة تحررية متطرفة ، كأن هذه السمة لا مفر منها فى كانة الحضارات حين تزدهر .

***

ولا يمكنك بالطبع أن تنكر ان الانجازات الحضـارية للفراعنة لا تقل فى روعتها عن انجازات الحضارة العصرية واذا كانت أوربا هى مؤسسة العلوم الحديثة فلا تنس ان مصر هى صانعة الابجدية التى يكتبون بها علومهم . واذا كنا نتحدث عن الثورة الصناعية فى اوربا فيمكنك بكل بسـاطة أن تتحدث عن الثورة الزراعية فى مصر القديمة . فلا شك ان اكتشاف الزراعة قد أحدث فى المجتمع المصرى انقلابا شـاملا لا يفترق عن الانقـلاب الذى أحدثته الثورة الصناعبة فى المجتمع الاوربى .

فاسرح معى بخيالك الى عهد أجدادك العظام ، وقل

ســلام على ذلك الجسم الاسمر القوى المتخفف الذى وقف فى الشمس الحامية جاما بعد عام لكى يبنى أهراما ثلاثة خالدة ، بين حين وآخر يتوقف ليمسح العرق عن جبينــه بســاعد أسمر مفتول ، وجرعة كبيرة من البيرة الساقعة يتقبلها شاكرا من ساقية سمراء باسمة تلبس البكينى .

- ٢ -

الحب والزواج

لم يكن محكوما على المراهق الفرعونى أن يقضى مدة طويلة فى نظم أشعار الغزل فى بنت الجيران ، الامر الذى ان كان قد أضر بفن الشعر عند الفراعنة فقد كان مفيدا للمراهق نفسه . وما أظن انه قد اختلى وحده فى حجرة مظلمة مقفلة وراح يتمرغ كحفيده المعاصر فى أحلام الجنس المحمومة ، ولا ينتهز فرصة الزحام فى أعياد آمون لكى يقترب من الاناث أكثر مما ينبغى . فكل هذه الانحرافات لايمكن أن تكون قد وجدت فى مجتمع يؤمن بتلك الفكرة الغريبة عن الوقت الذى يجب أن يتزوج فيه الفتى ، وهو ذلك الوقت الذى يشعر فيه الفتى انه يريد أن يتزوج !

فى الخامسة عشرة أو أقل يبدأ الفتى فى الشمشمة بأنفه الفرعونية الحساسة بحثا عن بنت الحلال ، وما أن يقع اختياره على قطقوطة من بنات الجيران أو الاقارب حتى يبتسم أهله فى سرور قائلين : على بركة اوزيريس . فاذا كانت أنفه أبلد من أن تتتبع الرائحة الى مصدرها فهناك تلك السيدة الطيبة المسماة بالخاطبة ، التى قد يخيل اليك انها اختراع عصرى فى حين انه قد مر عليها أكثر من اربعة آلاف عام وهى تباشر على أرضنا الخضراء تلك الوظيفة الرهيبة .

واذا تمت الخطبة فان ذلك الوغد الفرعونى لا يكسب القطقوطة فحسب وانما يكسب بعض الفلوس أيضا ، اذ كان أهلها بمقتضى العرف يدفعون له مبلغا من المال على سبيل الدوطة ، فى تلك الايام البعيدة الحلوة التى كان الناس فيها يعرفون قيمة الذكورة . والخطبة لا تستلزم أن يتم الزواج بعدها فورا وخبط لزق، بل كان يجوز أن تعقبها فترة من التجربة المتبادلة قد تصل الى عام . واذا كانت الآثار لم تقدم لنا كل التفصيلات عن نوع تلك التجربة ومداها فلسنا نشك فى انها كانت تجربة مفيدة لكل من الطرفين. فلئن يجرب الفتى فتاته قبل الزواج خير له ولها من أن يتزوجها بدون تجربة و «هما وبختهم» ، ولئن يتزوجها وهو يريد لها بعد نجاح التجربة أن تشاركه حياته خير له من أن يتزوجها لمجرد انه يريد أن تشاركه فراشه .

وكان الفراعنة فيما يبدو قوما دوغرى لايحبون التمويه ولا التقدم بوعود لايزمعون تحقيقها ، ومن ثم أتى عقد الزواج بهذه الصورة الواقعية التى تضع كل شيء على بلاطة ، اذ يقول العريس للعروس :

ــ لقد اتخذتك زوجة وللأطفال الذين تلدينهم كل ما أملك . ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهريا وسنويا ، وسأعطيك حاجتك من الزيت والنبيذ والفضة لزوم زينتك . فاذا طردتك فسوف أدفع لك خمسين قطعة من الفضة ، ومائة قطعة اذا أنا تزوجت عليك قطقوطة أخرى .

بهذه الطريقة ومن البداية تعرف العروس موقفها

بوضوح تام ، ذلك الموقف الذى أعلنت قبوله أمام ستة عشر شاهدا من الاهل والاصدقاء . العريس قد أعترف بخط يده بأنه رجل فارغ العين وانه لايعتزم بالمرة أن يكون لعروسه وحدها . والعروس نفسها تعترف بمعرفته ذلك

ولا تعترض عليه ، مكتفية بالتعويضات المنصوص عليها ، فى واقعية فرعونية لذيذة حقا . وأنا وان كنت لا أعرف كم تساوى بنقدنا المصرى تلك المائة قطعة من الفضة

فاننى أعتقد انه مبلغ لا بأس به أبدا . وغير بعيد أن يكون ذلك المبلغ قد أغرى أكثر من زوجة فرعونية عاقلة بأن تبحث لزوجها بنفسها عن عروس جديدة تفك بها ضيقتها كلما زنقت فى قرشين .

***

ولم يكن تعدد الزوجات هو الحق الوحيد المتاح الذكر الفرعونى فارغ العين ، بل كان من حقه فى الوقت نفسه أن « يتسرى » اذا كان قادرا على دفع ثمن

التسرى . فكانت بيوت الاغنياء مليئة بالجوارى الحسان اللاتى يبرطع الفتى بينهن فى حرية كاملة ، واذا ما ولدت الجارية ولدا فهو ينسب لها لا للوغد المفجوع .

واذا أدهشك هذا التسامح العاطفى من جانب الزوجة الفرعونية فاعلم انه لم يكن شيئا الله ، ولعله

نوع من الرشوة للذكر الفرعونى كى يترك المرأة الفرعونية تواصل الاستمتاع بالمزايا الاقتصادية الهائلة التى ورثتها

من المجتمع الامومى القديم . فقد كانت الاملاك العقارية تنتقل من الام الى ابنتها فى خط حريمى متواصل ، وليس للزوج سوى حق الانتفاع بتلك الاملاك طوال حياة

زوجته . فاذا ماتت الزوجة آلت الملكية الى ابنتها التى يمكنها « بايعاز من زوجها » طرد السـيد الوالد من البيت . فاذا كنت تجد اليوم فى ريفنا أنثى اسمها ست الدار فقد كان هذا هو الاسم الذى يطلق على ربة البيت الفرعونية ، وكان كما نرى اسما على مسمى . وكذلك الحال اذا قابلت فتاة ريفية أسمها ست أبوها ، فنفس هذا الاسم كان يطلق على البنت الفرعونية التى كانت ست أبيها فعلا لا اسما . فتلك الحرية كانت نوعا من التخدير للذكر الفرعونى ، كى ينهمك فى نزواته الجنسية ولا يتجه ذهنه الى التفكير الاقتصادى .

***

واذا أنت أحصيت القلائد والاسـاور والاقراط والخواتم والمكاحل والمراود والامشاط وأوعية أحمر الشفاه وطلاء الاظافر والباروكات التى وجدت فى قبور الفراعنة لادركت مدى البحبحة التى كانت تعيش فيها المرأة الفرعونيـة . فهى الاخرى كانت تحب أن تنزه نفسها ، وما كانت تقل فى ذلك عن أى سيدة مجتمع عصرية . فاذا بدأ السمر ودارت الانخاب فهى مع الرجال كأسا بكأس ، وثمة امرأة تركت أثرا يقول على لسانها :

ــ ان جوفى من شدة الظمأ مثل القش ، اعطنى ١٨ قدحا من النبيذ لـكى أشرب حتى أنتشى !

وفى تلك الظروف النشوى لابد أن تكون الزوجة قد تورطت فى بعض نزواتها الخاصة التى لم ينتبه اليهـا الزوج المشغول بأعباء الحريم ، أو التى انتبه اليها ولكنه فضل أن « يطنش » ! فرجل يستمتع بكل تلك الحريات

ربما كان أقدر على تفهم الضعف البشرى عند الآخرين.
وكل هذا لا يعنى بالطبع ان المرأة الفرعونية كان لها شيء من حريات زوجها، وقد كانوا ينظرون الى الزوجة الزانية نظرتنا اليها اليوم . واذا كانت الزانية العصرية تعاقب بالسجن سنتين أو ثلاث سنوات فقد كان المزاج الفرعونى احمى بكثير من المزاج الفرنسى الذى أنجب قانون نابليون.
فمن الآثار ما يحكى لنا عن زانية فرعونية أحرقت بالنار وعن أخرى قطع جسمها ووزعت أجزاؤه على كلاب الحى . وكان على شريكها أن يلقى مصيرا مشابها هو القاؤه طعاما للتماسيح الجائعة فى النيل السعيد. وهو مصير اعتقد انه يستحقه عن جدارة، أفلم يشبع من زوجاته وجواريه حتى يذهب للعبث فى بيوت الآخرين؟

***

وعلى أى حال لا أظن ان الزوجة الفرعونية كانت فى حاجة شديدة الى الخيانة، لانها كانت تتمتع مثل زوجها بالحق فى طلب الطلاق . فقد كان عقد الزواج عقدا مدنيا محضا وكان الفراعنة أعقل من أن يحولوا الزواج الى سجن أبدى، ولعل أكثر من فرعونية خبيثة قد استخدمت هذا الحق لكى تتنقل بين أكثر من زوج، محققة فى ذلك نوعا من تعدد الازواج الزمنى كما تفعل اليوم بعض الفنانات ! لان تعدد الازواج الفعلى نوع من الرفاهية التى لم تنجح المرأة قط فى الحصول عليه فى المجتمع الفرعونى أو فى أى مجتمع متحضر آخر.
فعلى طالبة التعدد أن تخطف رجلها الى التبت حيث

يمارسون ذلك النظام الغريب ، وما أظن انها سوف تكون سعيدة بين أزواجها هناك . فثمة رأى يقول بأن ذلك النظام لم ينشأ هناك الا بسبب الفقر الشديد الذى يعجز الرجل عن أن يعزل امرأة بمفرده ، فيجمع عددا من أصدقائه ويشتركون فيها . وبالنسبة للمرأة أعتقد ان زوجا واحدا حسن التغذية أبرك بكثير من خمسة عندهم انيميا !

ولكى نكون أكثر دقة فى تصويرنا للموقف الفرعونى يجب أن نعترف بأن كل هذا الكلام لا ينطبق الا على الطبقات الميسورة جدا وحدها ، فتلك الطبقات هى التى نجحت فى تخليد تاريخها عن طريق المقابر والتماثيل والنقوش . أما الرجل الفرعونى العادى ـ زارعا كان أو صانعا أو موظفا ـ فما أظن انه قد عاش حياة تختلف والعياذ بالله عن حياتك وحياتي ـ اذا كنت تسميها حياة !

- ٣ -

وهكذا اخترعت الكتابة

ليس ذنبى اننى أحمل هذا الاسم الغريب « بتاح » فهو الاسم الذى اختاره لى ابنائى المصريون الاعزاء يوم قرروا تنصيبى الها لشئون الفنون والصناعات. وهو منصب لايمكن لاحد أن ينكر اننى قد ارتفعت على الدوام الى مستوى مسئولياته الجسام ، ساعيا بأبنائى المذكورين فى الدروب الوعرة الملتوية المؤدية الى ما يطلبون الاخذ به من أسباب التمدن والحضارة .

صحيح ان الزميل « اوزيريس » كان قد سبقنى فى هذا المضمار حين علمهم كيف يزرعون الارض وكيف يصنعون الخبز من القمح ، والبيرة من الشعير ، لكننى أعتقد انه ليس بالخبز وحده ــ ولا البيرة طبعا ــ يحيا الانسان .

وما أكثر ما ضحيت فى سبيل أداء رسالتى ، وما أكثر ما تحملت من نزوات أبنائى الاعزاء ، وخذ مثلا تلك العروس الغريبة التى قرروا أن يزفوها الى . اسمها وحده كان كفيلا بأن يجعلنى أخاف منها . هل تحب أن تتزوج سيدة اسمها «سخمت» ؟ ووظيفتها العن ــ بالنسبة الى على الاقل ــ من اسمها ، فما حاجة اله مثلى الى زوجة تشتغل الهة للحرب ؟

والداهية الكبرى فى التكوين الجسمانى لتلك السيدة ،

وما أشك فى انك توافقنى على انه من العسير على أن أكون مرتاحا كل الراحة حين أقضى السهرة مع أنثى، لها جسم سيدة ورأس لبؤة .. فلعله كان من حسن حظى انها الهة للحرب وبذلك كانت مشغولة عنى معظم الوقت بالحروب التى لا تنقطع بين حكام قبلى وحكام بحرى .

غير انها كانت تزورنى بين الحين والآخر ، وخذ مثلا يوم دخلت على وهى تسحب وراءها تلك الشلة الغريبة المكونة من رجل مفتول العضلات يلبس فوق رأسه تاجا طويلا أبيض ، وشاب رقيق الملامح ذكى النظرات وفتى ضامر الجسم يحمل على رأسه لوحا كبيرا من الحجر المصقول . ومنها فهمت ان الاول هو ملك الوجه القبلى الذى انتهى لتوه ـ بمساعدتها طبعا ـ من ايقاع الهزيمة بأهل الوجه البحرى ، تلك المناسبة التاريخية التى يرى جلالته وجوب تسجيلها بطريقة تسمح لاهل الاجيال القادمة أن يطلعوا عليها ويتناقلونها جيلا بعد جيل .

قالت سخمت لحامل اللوح الحجرى :

ـ حط اللوح ياض

فوضعه الواد المذكور عند قدمى ، وعليه رأيت رسما يشبه الى حد لا بأس به صاحب الجلالة وقد أمسك بشومة كبيرة ليهوى بها على دماغ رجل راكع يرمز الى المنهزمين من أهل بحرى .

ـ أنا اللى راسمها .

هكذا قال الشاب الذكى النظرات وهو ينقر بأصبعه

على صدره فى زهو شديد ، والواقع انها كانت صورة جيدة جدا بالنسبة لهذا الوقت مما قبل عصر الاسرات.

قالت سخمت :

ـ بس فيه بقى مشكلة عليك انت بحلها .. ازاى نثبت للأجيال القادمة ان اللى مرسوم فى الصورة دى هو صاحب الجلالة ده موش صاحب جلالة تانى ؟

فتنحنح صاحب الجلالة فى كبرياء وهو ينتظر أن يسمع جوابى ، ونظرة من التشوق البالغ لمعت فى عين الولد الفنان . فتريثت لحظة حتى أزيد من شوقهم ثم قلت مقترحا :

ـ ما تكتبوا اسمه على الصورة ؟

فانفغرت أفواههم فى بلاهة وهتف الولد الفنان :

ـ نكتب اسمه؟.. يعنى ايه نكتب ؟

فابتسمت فى رثاء ثم تنهدت فى استسلام ، متذكرا ان الكتابة ليست من الاشياء التى توصل اليها أبنائى الاعزاء بعد ، وان الوقت قد حان لكى أقدم للبشرية أول درس فى محو الامية

ـ هو اسم جلالته ايه ؟

هكذا سألت لابس التاج فأجاب فى زهو يتناقض بشدة مع غرابة الاسم :

ـ نعرمر !

فكتمت ضحكة وقلت له عاشت الاسامى ، ثم التفت الى الشاب الفنان قائلا :

ـ ايه أول حرف فى اسم جلالته ؟.. يعنى صوت. ايه أول صوت فى اسم جلالته ؟

ففكر الشاب حينا وقال :

ــنا ...

ــ برافو .. وايه تانى صوت ؟

ــ عا ...

ــ تمام .. وايه تالت صوت ؟

ــ اررر

ــ وايه رابع صوت ؟

ــ ما ...

ــ وخامس صوت ؟

ــ اررر

فقلت شارحا :

ــ الخمس أصوات دول هم الخمس حروف اللى بيتكون منها اسم جلالته . ودلوقت عايزين بقى نكتبهم

ــ ازاى ؟

ــ قلت لى ازاى ..

ومتنحنحا بالالاطة المناسبة لاله يخترع اللغة المكتوبة للمرة الاولى قلت له :

ــ ارسم ياسيدى ... ارسم موجة .

ــ موجة ؟

ــ آه ، موجة . عمرك ما مشيت على شط النيل وشفت موجة ؟

ولكنه ما لبث أن تربع على الارض أمام اللوح الحجرى وعليه رسم خطا متعرجا لا بأس به كرمز للموجة .

ــ الموجة دى هى أول حرف من اسم جلالته ... احنا قلنا أول حرف ايه ؟

ـ نا ...
ـ خلاص كل ما تشوفوا الموجة دى تقولوا نا ... مفهوم ؟

ـ مفهوم
ـ تقولوا ايه ؟

ـ نقول نا .

ـ كويس . ننتقل بقى للحرف الثانى ... جنب الموجة دى ارسم لنا دراع ...

ـ دراع ؟
ـ آه .. دراع زى دراعك ...

فرسم الشاب شيئا يشبه الذراع
وقلت شارحا :

ـ زى ما قلنا على الموجة نا ... نقول على الدراع ده عا ... مفهوم ؟

ـ مفهوم
ـ نقول ايه ؟

ـ نقول عا ...

ـ ده جميل ، نبقى خلصنا دلوقتى من حرفين... ايه بقى الحرف التالت فى اسم جلالته ؟

ـ اررر
ـ تمام ... بعد الموجة والدراع ارسم عندك بق..
ـ بق ؟
ـ آه .. بق ما تعرفش بقك ؟

فرسم الشباب ما يشبه الفم البشرى ثم قال من تلقاء نفسه :

ـ وكل ما نشوف البق ده أقول اررر
ـ عفارم عليك ..

فتفزز الشاب حيث جلس على الارض وهو يصفق فى فرح صبيانى

ـ ايه بقى الحرف الرابع فى اسم جلالته ؟
هكذا سألتهم .. فقالوا : « ما » .

ـ ارسم بومة ..
فرسم الشاب بومة وقال :

ـ وكل ما نشوف البومة دى نقول ما ...

ـ تمام ، والحرف الاخير بقى موش حقول لك عليه

فهرش الشاب رأسه مفكرا ، وعكف على الصور يراجعها ثم ابتسم فى انتصار ورسم مكان الراء فما جديدا وقلت أنا :

ـ قولوا ورايا بقى ... موجة يعنى نا ...
ـ موجة يعنى نا ...

ـ ذراع يعنى عا ...
ـ ذراع يعنى عا ...

وهكذا حتى انتهينا من مراجعة كل الحروف المكونة لاسم صاحب الجلالة ، مسجلين بذلك أول كلمة فى اللغة الهيروغليفية ، وربما أول كلمة مكتوبة فى التاريخ البشرى كله . ومتنهدا فى ارتياح وقد أديت واجبى استدرت لانصرف فجذبتنى سخمت .

ـ على فين احنا لسه خلصنا ؟

وفهمت منهم انهم يتوقعون أن أرشدهم الى كافة الكلمات التى تسجل القصة الكاملة لانتصار صاحب

الجلالة ولكننى قلت لهما شارحا :

ـ شوفوا يا اولاد ... بقى احنا يا آلهة علينا نرسم الخطوط الرئيسية ، أما التفصيلات فدى حاجه عليكم انتم ، هه ؟

وازاء ما رأيت من ارتباك الفتى الفنان قلت له :

ـ راقب نفسك وانت بتتكلم ... وكل حرف تنطقه ارسم قصاده صورة ... ايشى تعبان... ايشى ديل بقرة ... ايشى ضلع غزال ... ايشى حية بقرنين... شوية شوية تلاقى قدامك أبجدية كاملة .. مفهوم ؟

فهز الفتى رأسه عدة مرات فى حماسة شديدة ، وتنحنحت أنا لانبههم الى انتهاء المقابلة .

ـ شيل اللوح ياض

هكذا قالت سخمت للواد فشال اللوح وأنا أطبطب على ظهر الفتى الفنان فى تشجيع وأصلح من وضع التاج الابيض على رأس صاحب الجلالة . وعند الباب توقفت سخمت وقالت لى باسمة عن أنيابها الحادة :

ـ اخلينى شوية ؟

فقلت بسرعة :

ـ لا مافيش لزوم .. روحى شوفى لك عركة هنا والا هنا ..

وأشحت بوجهى قائلا بالروحانية المناسبة :

ـ سيبونى أتفرغ لتأملاتى ...

فخرجوا وتركونى ، ويوما بعد يوم سمعت كيف عكفوا على اختراع الرسوم المختلفة لتعبر عن الاصوات المختلفة حتى اكتمل لهم ما سوف يعرفه التاريخ باسم اللغة

الهيروغليفية . والى تلك الرسوم أضافوا بعض العلامات الهجائية حتى صار عندهم أبجدية كاملة مكونة من أربعة وعشرين حرفا . صحيح أن حروفهم كلها ساكنة ، ولكنك تعرف ان الاختراعات العظيمة لا يمكن أن تستكمل الا عبر قرون وقرون . ولقد خطر لى مرة أن أرشدهم الى الحروف المتحركة ولكننى عدلت عن ذلك .. فليس من العدل أن أتولى أنا كل العمل ولا أترك شيئا للأخ جوبيتر وغيره من الزملاء الاغريق شيء .

وذات يوم دخلت على سخمت وهي تسحب وراءها شلة مماثلة للشلة السابقة ، وعلى رأسها رجل مفتول العضل يحمل فوق رأسه تاجا نصفه أبيض ونصفه أحمر ، وشاب دقيق الملامح ذكى النظرات مثل الشاب السابق ذكره ، ونفس الفتى الضامر الذى يحمل فوق رأسه لوحا من الحجر .

ـ بالك ايه « هكذا قالت سخمت فى فرح شديد » موش خلاص وحدنا القطرين ؟

ـ فقلت متظاهرا بالدهشة بتتكلمى جد ؟

ـ امال ايه .. احنا بنلعب ؟ والبركة فى صاحب الجلالة مينا .

ولسبب ما أحسست ان مينا هذا نعرمر متكرر متنكر ، ولكنى لم أقل شيئا . واستطردت سخمت تشرح لى كيف ان توحيد البلاد يحتاج لاجراء تغييرات شاملة فى الاوضاع الثقافية ، وعلى راسى هذه الاوضاع مسألة الكتابة على الحجر . فاذا أراد صاحب الجلالة أن يرسل منشورا من العاصمة الى حاكم الاقليم الجنوبى ،

أليس من المضحك أن يرسلوا عشرين لوحا من الحجر على ظهر عشرين حمارا لكى يصل المنشور الى وجهته فى شهر أو شهرين ؟

ــ لازم تشوف لنا حاجة خفيفة نكتب عليها .
ففكرت فى الامر لحظة ثم قلت :

ــ ما تكتبوا على جلود الحيوانات وعظامها ؟

فانبرى الشاب قائلا :
ــ جربناها لقيناها موش اد كده

ــ اكتبوا على الكتان ...
ــ غالى ...

ــ اكتبوا على الفخار ...
ــ بيتكسر ...

ــ اكتبوا على العاج ...
ــ ح نلاقى كل يوم فيل ؟

فأسقط فى يدى وكدت أتهرب منهم لولا أن سرحت ببصرى الى البحيرة الصغيرة بالقرب من المعبد ...

ــ بصوا وراكم ...
فبصوا ...
ــ شايفين ايه ؟

ــ شايفين بحيرة ...
ــ والبحيرة فيها ايه ؟

ــ فيها ميه ...
ــ والميه فيها ايه ؟

ــ لازم فيها سمك ...
ــ انتو شايفين السمك ؟

ـ لا ...
ـ أنا باسألكم شايفين ايه ؟.. موش شايفين حاجه طالعة من الميه ؟

ـ شايفين ...
ـ ايه ؟..
ـ أعواد بردى ...

ـ هو ده
فتنهدت فى ارتياح وقلت :
فنظروا الى فى بلاهة ...
ـ هو ايه ده ؟
ـ هو ده اللى تعملوا منه الورق ...
ـ ورق يعنى ايه ؟

وهذا عيب الابناء الاعزاء ، انهم يريدون أن تقدم اليهم كافة المعلومات وفورا . ومن ثم وضعت كفا على كتف صاحب الجلالة وكفا على كتف الشاب الفنان وقلت :

ـ شوفوا يا اولاد ... بقى احنا يا آلهة علينا ...
غير ان الشاب قاطعنى باسما :
ـ علينا نرسم الخطوط الأساسية وانتو عليكو الباقى ...
فنظرت اليه بريبة ...
ـ هو انت اللى جيت مع نعرمر ؟
ـ لا يا افندم ، أنا واحد من أحفاده ...

فسرنى ان أخبار تقاليدى تنتقل بهذه الصورة عبر الاجيال ، كما سوف تنتقل تعاليمى عبر الاجيال

بوساطة هذا الاختراع السحرى الذى هو ورق البردى؛ الذى لولاه لما أمكن تسجيل تاريخنا المصرى المجيد ولاتاريخ من سوف يأتون بعدنا من يونان ورومان ، ولضاعت معظم الوثائق الحافظة للتراث وتغير تاريخ الثقافة تغيرا شاملا .

وفى اعجاب شديد نظرت الى سخمت وقالت :

ـ موش عارفه من غيرك كنا عملنا ايه ...

وأقبلت على متأودة بجسم الانثى وراس اللبؤة ؛ أدنت وجهها من وجهى لتقبلنى فيما يبدو ، أنفاسها الساخنة لسعتنى وشواربها الطويلة شوكتنى .

قلت مناشدا :

ـ سخمت ...

فقالت مداعبة :

ـ ايه يا بتوحة ؟

فقلت محذرا :

ـ ما فيناش م العض ، هه ؟

فتناولت بأنيابها حلمة أذنى وعضتها مداعبة ، ومن حقها على أن أعترف بما أثبتته لى بعد ذلك من ان الانثى ليست على الدوام براسها ، بل انها بالنسبة لبعض الاناث قد لاتزيد ـ الراس ـ عن كونها عضوا ثانويا مكملا ، أو نوعا من الاسراف الفسيولوجى غير المتوقع من الطبيعة المقتصدة دائما .

***

ملحوظة : علماء المصريات يعرفون ان الفراعنة ينسبون اختراع الكتابة الى الآله توت لا الى الاله بتاح ، وحيث ان كلا الالهين لم يكن موجودا فقد اخترت أخفهما دما على قلبى !

- ٤ -

مقاولة الهرم الأكبر

لاشك ان الملك خوفو قد انشكع بشدة عندما فرشوا أمامه ورقة البردى الهائلة التى تتضمن رسما هندسيا للهرم المزمع بناؤه ، ذلك الرسم الذى تفتقت عنه عبقرية مهندس ناشيء نفترض ان اسمه حور .

حور : المساحة ياَمولاى ثلاثة عشر فدانا بالضبط ، وطول كل ضلع من الاضلاع الاربعة ٢٣٣ مترا ، والارتفاع ١٤٥ مترا ، وعدد الاحجار مليونان وثلاثمائة ألف حجر تقريبا ، متوسط وزن الحجر الواحد طنان ونصف طن ، وكل واجهة من الوجهات الأربع ستكون مقابلة تماما لاحدى الجهات الاصلية . وحجرة الدفن بالذات سوف تكون فى الجهة البحرية لا لكى ترطب المثوى الملكى فحسب ، وانما .. وانما .. وانما ..

وهنا تدخل لاتمام الجملة كبير كهنة عين شمس الذى اعتقد ان اسمه يجب أن يكون سمنخرع .

ـ وانما لكى تكون فى مواجهة النجم القطبى الذى لايغيب أبدا ، رمزا للخلود الذى ينتظر مولانا فى جنات اوزيريس ذات الربيع الدائم .

وهنا جاء الدور فى الكلام على المقاول الذى استحضره سمنخرع ليتولى العملية واسمه فى أغلب الظن توت .

توت : والميزانيــة يا مولانا ملمومة وحاجة ع الإد

خالص .. ومولانا طبعا يعرف وهو سيد العارفين ان هرم زى ده لا ممكن يتكلف أقل من عشره مليون جنيه.

وبينما نظر خوفو الى الخريطة رفع يده الى رأسه ليهرشها بطريقة فرعونية لا تخلو من رعدة تأثر .

ـ لكن ده يخلص على امتى ده ؟

هكذا تساءل الملك الاله .. فقال المهندس حور فى استخفاف :

ـ سنتين .. تلاته .. بالكتير ...

فلكزه توت بكوعه وقال :

ـ لا سنتين ولا تلاته ... على النعمة لاشطبه فى سنة واحدة !

ورفع سمنخرع اصبعه مشيرا الى قرص الشمس :

ـ وببركة رع قبل كده كمان .

فعاود خوفو هرش رأسه الملكية ثم قال :

ـ لكن عشره مليون موش كتير ؟

فأخرج كل من حور وتوت ورقة بردى من جيبه تتضمن الحسابات المبدئية الخاصة بتكاليف العملية ، وشرعا يشرحان الحكاية لصاحب الجلالة . والحكاية تحتاج ـ ومولانا سيد العارفين ـ الى ما لا يقل عن خمسين ألف عامل لاقتطاع الصخور من محاجر طرة ، وتسويتها وتحويلها الى مكعبات مصقولة فاخرة .

ـ وعلى فكرة « قال توت مستدركا » انا عندى متعهد أنفار يعجب مولانا قوى !

وحيث ان الهرم سوف يقام ـ كما يرى السيد المهندس ولاعتبارات معمارية ـ فى الجيزة لا فى طره ..

فلا مناص من نقل تلك الملايين من الاحجار عبر النيل من الشاطىء الشرقى الى الآخر الغربى ، والامـر يحتاج الى اسطول من الزوارق يستطيع مولانا أن يتخيل مدى ضخامته .

ــ وبرضه عندى متعهد مراكب مافيش زيه فى منف، كلها !

وهؤلاء العمال يجب أن يأكلوا بالطبع ، ومهما قترنا عليهم فى الاكل فهل ممكن أن نقيم أود الواحد منهم ــ لـكى يعطينا جهدا كافيا ــ بأقل من رغيف فى الطقه مع خصاية وشرش بصل ؟

ــ وبرضه عندى واحد متعهد أغذية انما ...
وهنا قاطعه سمنخرع قائلا :

ــ لا ياسى توت ، ده على انا !

وهناك آلاف الفئوس والمعاول اللازمة لقطع الاحجار من الجبل ولرفعها ، وآلاف أمتار الحبال المتينة اللازمة لجرها ، وكل هذا أيضا بفلوس .

ــ وبرضه أنا عارف لمولانا ...

وكان حور هو الذى قاطعه هذه المرة :

ــ من فضلك دى حاجات من اختصاصى أنا !

وبينما واصلوا شرح متطلبات العملية واصل خوفو هرش رأسه وقد بدأ يشعر بما يشبه الدوار ، ثم قال بالالاطة المناسبة لملك من الاسرة الرابعة :

ــ أمرنا بعشره مليون ..

فامتلأت الحجرة بالرياح نتيجة لتنهدات الارتياح ، ورفع سمنخرع أصبعه الى السماء قائلا :

ـ على بركة رع !

وفى الحقول والقرى نودى على الفلاحين ان واحدا منهم لن يتعطل بعد اليوم حين تمتنع الزراعة فى موسم الفيضان ، لان آلاف الايدى العاملة مطلوبة للعمل طوال موسم الفيضان وكل المواسم مساهمة شريفة منها فى تشييد أعظم بناء عرفه التاريخ ، الهرم الخالد الذى سوف يضم الجثمان المقدس للملك الاله .

وفى ذات فجر صيفى رطيب لمعت عند الافق نجمة ايزيس « الشعرى اليمانية » مبشرة باقتراب الفيضان فتدافع فى الطرقات وعلى حافة النهر آلاف من الفلاحين والعمال يقصدون طرة ، وعلى جسم الجبل تهاوت آلاف الفئوس والمعاول محدثة ضجة لا أشك فى انها قد وصلت من طرة الى أبى زعبل .

ومرت السنوات الثلاث وذهب خوفو ليرى نتيجة العمل ، ومن المستبعد جدا فى هذه المرة أن يكون قد انشكع . فلا يمكن أن يكون قد رأى سوى اربع أوخمس طبقات من الصخور وليس ثمة هرم . ولابد أن يكون قد استشاط غضبا ، ولابد انه شخط ونطر وسب ولعن ، فصبروا عليه حتى فش غله ثم تنحنح سمنخرع وقال بصوت وقور يهدىء به من ثورة الملك :

ـ المسألة موش سهلة يا مولاى ، دول اتنين مليون حجر ونص ...

وتدخل حور قائلا :

ـ ده ظبط حجرة الدفن ع البحرى خد لوحده ست أشهر !

وخيمت لحظة صمت قبل أن يتنحنح حور قائلا :

ـ والميزانيـة ولا مؤاخذة خرمت شوية ، يلزمنـا عشره مليون تانيين ...

فضرب خوفو بيده على جبينه الملـكى ضربة كادت تسقط التاج عن رأسه لولا ان لحقه سمنخرع . وازاء

ما عرى وجهه من شحوب فرعونى بالغ لابد انهم أحضروا له خادما ليهوى على وجهه وكأس نبيـذ ليهدىء من روعه . ولـكى يعرف الملك أين ذهبت الفلوس شرعوا يشرحون له الميزانية بندا بندا ، وخذ مثلا يامولانا هذا البند البسيط وهو بند الخص . كانوا يظنون ان العامل من دول سوف يشبع من خصاية واحدة فاذا بالوغد يحش خمس خصايات ويظل جائعا .

ـ ويظهر ان الاله « مين » موش راضى علينا ... الدودة نزلت هرى فى المحصول والخصاية بقت بالشىء الفلانى !

ـ والراجل منهم يامولانا ياكل شرش البصل على بق!

ـ والعيش ما تعدش يامولانا ... الرغيف ده يعتبر حاجه كده مسح زور !

وفى ذات يوم هددوا بالاضراب ان لم يبلوا ريقهم خلال العمل بشىء من البيرة ، والبيرة فتحت نفسهم فصاروا أشره من قبل . وهذا البند يهون جنب بند الاسكان، ونص الميزانية قد ضاع فى بناء العنابر التى تلم كل هذا الحشد من العمال .

ـ ولا المصاريف الادارية ...

اذ استدعى الامر انشاء ادارة الاحصاء التى تتولى

عد الاحجار وحصرها وضمان سلامتها . ثم ادارة الحسابات اللازمة لمراقبة الانفاق وموازنة الدخل بالمنصرف . وادارة شئون العاملين التى تقوم بصرف الاجور والمرتبات . وادارة الشرطة التى تفض ما لامفر منه من المشاحنات التى تشتد حين ترتفع الحرارة وتفشل البيرة فى ترطيب النفوس. وفوق كل ذلك ادارة خاصة لتنسيق العمل بين كل هذه الادارات .

ـ ولا بند الطوارىء ...

الذى اضطروا الى اضافته فى ذلك اليوم المشئوم يوم أرسل رع فى لحظة غضب تلك الريح الصرصر التى أغرقت فى النيل أكثر من نصف الاسطول فأعادوا بناءه من جديد .

ـ ولا بند الحوادث ...

اذ ندر أن مر يوم دون ان ينفعص تحت الاحجار خمسون أو ستون عاملا ، وهو ما يفسر لمولانا هذا البند الآخر ـ بند الندابات الاجيرات ...

ـ ولا بند الكرابيج ...

وذلك حين لاحظوا موجة الالحاد التى بدات تتفشى بين العمال ، حتى وجد منهم من يتشكك فى القيمة الدينية لهذا كله ، دعك يامولاى من أولئك الهدامين الذين يتساءلون لماذا لايدفن مولانا فى قبر مثل كل القبور؟

ـ ولا بند . . . .

غير ان خوفو رفع يدا ملكية تأمرهم بالسكوت ، وبعد شيء من النفخ المبرر فى تلك الظروف قال :

ـ أمرنا بعشرة مليون ودى آخر مرة ...

ثم أضاف منذرا :

ــ على شرط أن يخلص فى سنتين !

ــ خليهم خمسة يامولاى ...

ــ خليهم خمسة ...

وحيث اننا نعلم ان بناء الهرم استغرق عشرين عاما فيمكنك أن تعرف مدى ما اعترى خوفو من غضب ومرارة ويأس عندما ذهب بعد تلك السنوات الخمس فلم يجد أمامه أكثر من ثلث هرم . فلا بد انه هاج وماج من جديد ، وخاصة عندما تنحنح توت وقال :

ــ وبرضه لا مؤاخذة يامولاى الميزانية خرمت شوية.

وأسرع سمنخرع بوضع كومة من الاوراق أمامه وقال :

ــ وكل شيء يامولانا مسجل فى الدفاتر !

فلا بد ان خوفو رفص هذه الاوراق بقدمه وبعثرها حتى تطاير بعضها بالقرب من مينا هاوس . وما أشك فى انه « لو أنا مكانه لعملتها » صاح فى توت بصوت يهز الهرم :

ــ انت حرامى ! انت لص ! انت مجرم !

ولا بد ان الصيحة ألجمت توت بعض الوقت ، ولكن المقاول المحنك ما برح بالطبع أن أطل برأسه وقال معاتبا :

ــ أنا حرامى يامولانا ؟.. أنا لص يامولانا ؟..

وألقى ما بيده على الارض لكى يتاح له أن يعد على أصابعه وشرع يقسم :

ــ طب ورع العالى أبو صقر .. وآمون الخفى ..

وأوزيريس الحى .. وايزيس الطاهرة .. وحوريس اللى خد بتار أبوه .. وخنوم اللى خلقنا من طين .. وجحوتى اللى خلقنا بكلمة .. ومسخنت حبيبة الحبالى وتوت وتفنوت .. وجب وشىء .. ومين ويس .. ونفتيس وسخمت .. وابيس وانوبيس .. والثالوث والتاسوع والثامون .. ومولانا اللى ما احلفش بيه باطل أبدا .. « لحظة لكى يسترد أنفاسه » ان الشفلانة دى ما هى جايبة تمنها !

ولابد انه استدار لينصرف فشده سمنخرع من جونلته وطبطب على ظهره مهدئا .

ـ وما تنساش كمان يا مولانا « هكذا قال حور » ان حجرة الدفن ع البحرى !

فراح خوفو ينفخ نحوا من خمس دقائق ، وناظرا الى آلاف العمال الذين يشتغلون كالنمل فى قبره مابرح أن هدأت نفسه أمام الامر الواقع ..

ـ عاوزين كام ؟

ـ اللى يطلع من ذمة مولانا ... عشرة مليون كفاية.

ففكر خوفو لحظة ثم تنهد قائلا فى استسلام :

ـ اللى وقع يسد ... اندهوا لى مدير الضرائب !

ولم ينس قبل أن ينصرف أن يقول منذرا :

ـ ويخلص فى سنة واحده !

فرفع سمنخرع اصبعه نحو السماء وقال :

ـ على بركة رع مولاى .

***

ولا بد أن خوفو بدا يتشكك بشدة فى بركة المذكور

عندما دار العام وما برح الهرم ثلثى هرم .

وربما كان هذا هو السبب فيما ذكره التاريخ من انه خطف رجله فيما بعد الى بوباسطى « الزقازيق حاليا » لكي يبنى معبدا لحساب الالهة القطة بسبس «باستت سابقا » .

عشرون عاما قضاها الفرعون التعس فى هذه المعاناة المتواصلة ، وسط آلاف المخاوف والشكوك والصدمات ، لكنه كوفىء على صبره فى النهاية مكافأة طيبة . فعندما انتهى بناء الهرم لابد أن يكون قد انشكع حقا ، ومن ذا الذى لا ينشكع ازاء هذا الجبل الخراى الماثل أمامه ، اللامع فى ضوء الشمس كأنما قد صنع من ذهب خالص ؟

ـ وما تنساش يا مولانا «قال حور» ان حجرة الدفن ع البحرى .

ولا بد ان فرحته بالقبر الفذ قد هونت عليه أمر خزينته التى فتحها بالامس فوجدها شبه خاوية . وذلك طبعا بعكس خزينة معبد عين شمس التى طفحت بما فيها من ذهب وفضة .

***

وقال له سمنخرع عندما سمع أنه قد أنجب بالأمس ولدا :

ـ ح نسميه ايه يا مولانا ؟

ـ حاسميه على اسمى .. أنا خوفو وهو « خف »

ـ خف ؟

ـ ايوه ...

فرمقه سمنخرع بخبث وقال :

ـ حاف كده ؟

فتفكر خوفو حينا ثم تنهد وقال :

ـ خَف ... ربع !

- ٥ -

من يوميات أمون

١٥ طوبة سنة ٢١٤٠ ق.م.

بدأت بصراحة أزهق من هذه الوظيفة المحدوفة فى أقاصى الصعيد .. وظيفة اله الهواء بمدينة طيبة. نعم اننى أتنفس فأزود الاهالى بحاجتهم من الاوكسجين وهذا شيء هام ، ولكن لماذا لا تكون أنفاسى على مستوى المملكة كلها مثل رع وأوزيريس وبتاح وغيرهم من الآلهة العامة ؟ فاذا أنت نظرت الى القرابين التى يقدمونها لى فهى بالاختصار زفت ، وأى قرابين تلك التى تقوم معظم الوقت على الخص والفجل والجرجير والبصل الاخضر وجميزة أو اثنتين ؟ صحيح ان الموقف يتحسن بعض الشيء فى الاعياد والمواسم حين يقدمون الى شيئا من اللحم ولكننى أعتقد ان البروتين الحيوانى ليس من العناصر التى يجوز أن تغيب عن مائدة الاله المحترم فى أى يوم . والخدمة هى الاخرى زفت ، ونظرة الى الكاهن الذى يقدم لى تلك القرابين كفيلة بأن تسد نفسك أسبوعا . فهو ليس هزيلا ضعيفا ضامرا مهلهل الثياب فحسب ، وانما أقرع أيضا . وما يكاد يضع الطعام أمامى ويهمهم بترنيمة أو اثنتين حتى يسارع بسحبه قبل أن أصيب منه شيئا . وبالرغم من

ذلك لايبرح هزيلا ضعيفا ضامرا ، مما يدل على انه اشدة افلاسه لا يأكل منه الا بصلة أو فجلة ويبيع الباقى . فهى كما ترى حياة لا نسر عدوا ولا حبيبا ، وليس يعزينى سوى ما أمنى به نفسى من أن يأتى اليوم الذى تزول فيه الغشاوة عن أبصار الناس فيكتشفون مواهبى ويعرفون أى اله أنا .

١٠ هاتور سنة ١٩٩١ ق.م.

يبدو ان حدسى الالهى لم يخطىء ، وان تلك الغشاوة قد بدأت تزول فعلا . فلماذا فوجئت هذا الصباح بذلك الثور العظيم الذى ذبحوه عند قدمى ؟ وشيء من دمائه طرطش ساقى فأسرع كبير الكهنة بمسحه عنى بذيل مئزره الذى لاحظت انه مئزر جديد .

وكاهن آخر همس لزميله وهو يرمقنى فى رهبة شديدة :

ـ تصور ان مولانا سمى نفسه على اسمه ؟

ـ مش معقول ؟

ـ وحياة رع كده .. سمى نفسه آمن محات .

وتوقف لحظة ليبلع ريقه، ثم أضاف وهو يشير الى:

ـ وعارف هو بقى ح يسموه ايه ؟

ـ ايه ؟

ـ آمون رع !

ـ يانهار زى بعضه !

وأقبل الجميع فركعوا أمامى وهات يا ترتيل. وبخور كثيف أطلقوه حولى وهم ينشدون ، ثم كنسوا الحجرة

ورشوها بالماء المقدس، ثم أقفلوها على وختموها وصارت من ساعتها قدس الاقداس الذى لا يجوز دخوله لغير الصفوة من الناس .

٢٠ مسرى سنة ١٩٩٠ ق٠م٠

في صبر جميل رحت استمع الى المناقشات اللاهوتية التى تدور بين الكهنة حولى ، باسما وأنا أرى لخمتهم الميتافيزيقية بشأن اختيار الخانة التى يدرجوننى فيها من ثامون عين شمس أو تاسوع منف . وخلاف شديد بينهم حول ذلك السؤال العسير : هل تولى ثامون الالهة عملية خلقى أو اننى أنا الذى توليت خلق ذلك الثامون؟

غير اننى لن أتعبك بالتفصيلات وحسبك ان تعرف خلاصة ماوصلوا اليه من صفاتى وكيف اننى ملك الالهة وسيد الملوك ، صانع الرجال وخالق الحيوانات وبداية كل ما هو موجود ؟ ليس لى أب ولا أم بل شكلت بيضتى بنفسى ومزجت نطفتى بجسدى ، ومثل آتوم رفعت نفسى من هاوية الحياة الازلية . الرياح أنفاسى والرعد صوتى ، وعينى اليمنى هى النهار والليل عينى اليسرى . سيد الحق وسيد الزمن ، مبطل الرقى وشافى المريض ، مطيل الاعمار مجيب الدعاء .

وشيء آخر لاحظوا انه بدونه لايمكن أن يتم كمالى ، وهو ذلك الشبه الشديد القائم — أو الذى يجب أن يقوم — بينى وبين اله التناسل «مين» . ومن ثم نادوا من النحاتين من أدخل على تمثالى من التعديلات التشريحية ما يقوم دليلا قاطعا على فحولتى الفذة

واستعدادى الدائم للاخصاب عند الطلب . وأصارحك القول بأن هذا سبب لى فى بداية الامر بعض الارتبـاك وخاصة حين تتواجد فى قدس الاقداس بعض المتعبدات.

وفوجئت بهم بعد حين يسوقون الى المعبد سربا من الحسان الناضرات الضاحكات وقد سموهن محظيات الاله ، فمعذرة اذا أجلت اكمال هذه اليومية الى وقت آخر .

٢٠ بابة سنة ١٧٩٠ ق٠م٠

للأسف الشديد لم تدم سعادتى غير قرنين من الزمان لا غير ، وما قيمـة قرنين فى حياتنا نحن الالهة ؟ اذ أشعر اليوم بأن شيئا خطيرا يجرى فى البلاد ، ورياح الشمال تهز قدس الاقداس بأصـوات بعيدة لصليـل وصهيل وهرج ومرج وهبد ورزع ، مع هتاف وصياح وصراخ وحشى ، وعويل وأنين وعواء حزين ، ثم صمت رهيب مثل صمت القبور . باب قدس الاقداس فتح عن عدد من الـكهنة قد كسا الحزن وجوههم ، برءوس مطرقة أتوا فركعوا أمامى . شىء من الهمهمة الغامضة ثم رفعوا الى عيونا غمرتها الدموع ، ووراء الدموع مزيج عجيب من الشك والخوف والعتاب .

لان قوما من آسـيا يدعون بالهكسوس هجموا كما فهمت على البلاد واحتلوا الدلتا ، وبيوت كثيرة نهبت، ومعابد هدمت ، وحـرائق رهيبة حولت الليـل الى نهار . فهذا ما يفسر معنى العتاب فى نظرات الكهنة ، فكيف سمحت ـ أنا آمون العظيم ـ بأن تحيق بالبلاد

مثل هذه الكارثة ؟ ومن ثم كان معنى الشك والخوف ، الشك فى قيمتى كاله يقدر على كل شيء ، والخوف من أن أكون قد غضبت عليهم لسبب أو آخر فرأيت أن أحل عليهم نقمتى .

ولكننى بالرغم من حزنى الشديد وخجلى أرى أن الذنب ليس ذنبى ولا ذنب أى انسان فماذا كان فى استطاعة الناس أن يفعلوا وقد فوجئوا بعدو يهاجم من فوق عربات تجرى على عجل ويجرها ذلك الوحش الخرافى الذى خلقته الهة آسيا وأسمته بالحصان ؟

١٢ كيهك ١٥٩٠ ق٠م٠

قرنان آخران كما تلاحظ قد أضيفا الى عمرى ، وشلة من الكهنة والنبلاء دخلت قدس الاقداس وعلى رأسها حاكم طيبة « سقننرع » . كان عنده كما فهمت مشكلة يريد أن يأخذ فيها رأيى ، وما أغربها من مشكلة . ملك الهكسوس أبو فيس المقيم بمدينة هوأره من أعمال الدلتا ، بعث اليه برسول يطالبه باعدام كافة أفراس النهر المقيمة فى بحيرات طيبة ، مستندا الى ذلك السبب المضحك وهو أن خوارها يقطع كل المسافة من طيبة « الاقصر حاليا » الى الدلتا فيزعجه ويطير النوم من عيون جلالته ! فهى كما ترى تمحيكة وضيعة وجر شكل ، اذ أراد الوغد أن يحرج سقننرع ويزنقه بين أمرين : اما أن ينصاع للأمر السخيف ويصبح بذلك اضحوكة طيبة ، واما أن يعصاه ويكون بذلك مستحقا للعذاب . ومن ثم وجه سقننرع الى سؤاله الاول الذى

يقول : هل أذبح سيد قشطه ؟ وعلى قدس الاقداس خيم صمت عميــق وقد تعلقت بى العيون فى انتظـــار اجابتى ، غير ان صمتى طال بالطبـــــع دون أن أقول شيئا . وهكذا طرح سقننرع سؤاله الثانى :

ـ هل أهاجم أبوفيس ؟

ولم يطل صمتى هذه المرة ، اذ لمحت رئيس الـكهنة يتسلل فى الظلام الى ما ورائى ، وعلى قفاى أحسست بيده توضع ـ وكانت ساقعة جدا ـ لـكى تدفع رأسى الى الامام . وللفور امتلأت الحجرة بالهمهمة وصـاح كبير الـكهنة يقول : « الاله يقول نعم ! »

فتحولت الهمهمة الى تهليل وهتاف ، وركع سقننرع أمامى ليغترف من بركتى قبل أن يخوض المعركة .

٢٠ مسرى سنة ١٥٩٠ ق٠م٠

بدأت أكره سيد قشطة وبدأ خواره يؤرقنى أنا لا أبوفيس ، فكلما سمعت ذلك الصوت البغيض حزنت جدا على سقننرع الذى سقط فى المعركة صريعا .

٥ برموده سنة ١٥٨٠ ق٠م٠

بالامس ســـمعت رئيس الـكهنة يقول لاحـــد أعوانه وهو يشير الى :

ـ ملـكنا كاموس سيأتى اليوم ليستطلع رأى الاله.

ـ وهل سيوافق ياترى ؟

وانتظرت أن أسمع الاجابة ولـكنهما ابتعدا والكاهن يشوح بذراعيه فى عصبية . واليوم أتى كاموس مثلما

أتى من قبل أبوه سقننرع ، ومن جديد وجه الى نفس السؤال : « هل أهاجم الهكسوس ؟ »

وانتظرت أن أشعر بيد الكاهن الساقعة على قفاى ولكن شيئا من ذلك لم يقع . وطال الصمت وقد تعلقت بى الابصار ، وأخيرا نطق رئيس الكهنة فقال :

ــ الاله يقول : لا !

فسرت هنا همهمات ارتياح ، واستدار كاموس فخرج وعلى وجهه علامات الغضب . ونسيت أن أقول لك ان الكاهن الضامر الهزيل بتاع زمان قد سمن وترهل وأصبح وزنه مائة كيلو على الاقل .

٦ برموده سنة ١٥٨٠ ق٠م٠

علمت ان الملك كاموس وقد خرج من عندى جمع مجلسا من رجاله وقال لهم فى غضب :

ــ أريد أن أعرف ما مدى سلطتى.. وأريد أن أعرف كيف يكون للبلد ملكان .. وكيف أسمح لاجنبى بأن يحكم نصف بلادى ؟ سأحارب ملك الهكسوس وأبقر بطنه وأخلص مصر من الاسيويين !

فقال له بعض الرجال ما معناه :

ــ يامولانا خلينا فى حالنا.. ما احنا كويسين كده.. آدى احنا عايشين نسترزق !

ولكن كاموس صاح فيهم قائلا :

ــ ان جميع البلاد فى حزن وأسى ولسوف أحارب الهكسوس ! وسوف يهتف الناس باسمى كحاكم طيبة وحامى مصر العظيم .

١٠ هاتور سنة ١٥٧٩ ق٠م٠

أنباء مفرحة من الشمال ، عن أمير الهكسوس الذى فوجى ساعة الافطار بهجوم المصريين ، وكيف ذبحوه وخربوا مدينته وأخذوا زوجتــه بين الاسرى . ومدن أخرى تتساقط فى يد كاموس واحدة تلو أخرى. نعم هى أنبــاء مفرحة ولــكننى مع ذلك حزين ، لم أكن أحب أن يلقى كاموس نفس المصير الذى لقيه أبوه .

٥ بؤونه سنة ١٥٧٥ ق٠م٠

أحمس وقف أمامى كما فعل كاموس من قبل ، ومن جديد سمعت نفس السؤال : هل أواصل المعركة ؟

وطال انتظارى لليد الساقعة ، وأخيرا نطق رئيس الــكهنة فقال : « الاله يقول : لا ! »

فأدركت اننى يجب أن أعتمد على نفسى ، والى هذه اللحظة لا أعرف كيف نجحت فى أن أومىء برأسى ، فلا بد ان الثامون أو التاسوع تدخل فى الامر . وما كادوا يرون ايماءتى حتى صاحوا جميعا : الاله قال : نعم !

١٠ توت سنة ١٥٧٠ ق٠م٠

أمون هو أمون وان طال الزمن ! أخيرا عاودتنى قوتى وحلت على الناس بركتى ، وبأنفاسى نجح أحمس البطل فى تطهير البلاد من الهكسوس . ألا ما أجمل منظر أولئك الناس الفرحين ، والغنــاء والرقص الذى يهز طيبــة هزا . وبخور ذكى يملأ الدنيا ، وأكداس من القرابين حولى . والليلة أستطيع أن أعود الى ســعادتى مرة أخرى ، بين محظيات الاله على صـــوت ذلك الخوار المطرب لسيد قشطة !

سقوط آمون

- ١ -

الذى عاش فى الحقيقه

لن تجد غرابة كبيرة فى وجود كل ذلك الحزن على وجه نفرتيتى « ومعناها الحلوة تيتى » اذا أنت ألقيت نظرة علىمنظر السيد زوجها اخناتون ، برأسه المستطيل وفكه المتدلى وشفتيه المطوطتين ، وكتفيه المنحدرتين حول صدر هزيل يزينه ثديان متورمان يتناغمان مع ذلك الانتفاخ الشديد فى بطنه وكأنه حامل فى شهره الاخير . فلو اقتصر الامر على ذلك لكان هينا ، ولكن اخناتون كان عبقريا أيضا ، والعباقرة كما تعلم أردأ نوع من الازواج « ولن أقول لك واسأل مراتى أحسن تفتكر انى مغرور والا حاجة ! » . صحيح ان السيد اخناتون قد أنجب منها ست بنات ولكن يجب أن تذكر ان ذلك كان فى سنوات العسل الاولى ، قبل أن يغرق بروحه وكيانه فى نشوة الفكر الدينى ، وقبل أن يتفرع لتأليف أناشيد الغزل فى معبوده الجديد آتون .

كان اخناتون وريثا لاكبر امبراطورية عرفها التاريخ فى ذلك الوقت ، ومن ثم كان عنده كل ما يلزمه من الوقت لكى يجلس مسترخيا ويتفلسف . وأدت به فلسفته الى استهجان عام لتلك المهزلة الالهية التى يعيشها شعب مصر ، بين آلهة تحمل رءوس الصقور، وأخرى تحمل رءوس البقر والكباش والثعابين، دعك

من السيدة سخمت التى تحمل رأس لبؤة . وأوزيريس نفسه لم يعجب اخناتون ، بعالمه السفلى الملىء بالارواح الشريرة والمحاكمات الهزلية . واما آمون اله الدولة الرسمى فقد اختصه بكراهية لا مثيل لها وقرر أن يمحوه من الوجود محوا .

وما كان لهذه الافكار أن تمر بالطبع دون أن تثير غضب الكهنة ، سواء كهنة آمون أو كهنة سائر الآلهة الذين كانوا يتمرغون فى الذهب والفضة من وراء الاتجار بتلك الاسماء المقدسة .

فبدأ الكهنة الغاضبون يحيكون حوله المؤامرات ، بل قيل انهم حاولوا اغتياله عدة مرات . غير انهم بدلا من أن يرهبوه اشعارا فيه غضبة فرعونية حامية ، فأرسل رجاله فى أرجاء البلاد ليحطموا اسم آمون فى كافة النقوش ، وليمحوا كذلك اسم « الآلهة » التى تتعارض مع وحدانية الهه الجديد آتون .

ولكى يخلص نهائيا من خلقة كهنة آمون عمد الى هجر مدينتهم طيبة الى نقطة تبعد عنها بثلاثمائة كيلو ، وهناك أقام عاصمته الجديدة فى المكان الذى يعرف اليوم بتل العمارنة . فى تلك المدينة البعيدة الجديدة ذات الحدائق الكثيرة والشوارع الفسيحة تمكن اخناتون لاول مرة من أن يملأ صدره بالهواء النقى ، بعيدا عن رائحة البخور الذى يتسرب من فتحات المعابد المقفلة على الاله الخفى آمون .

وفى مدينته الجديدة راح اخناتون يطور فلسفته عن الحياة فى الحقيقة أو فى « الصدق » . وعن طريق هذه

الفلسفة حدثت أكبر ثورة فى الفن المصرى القديم ، فكف النحاتون عن صنع تلك التماثيل الجامدة « المنشية » ، وبدأ الرسامون يصورون الاشياء كما يرونها فى الحقيقة.

ولقد وجد اخناتون من الجرأة ـ تمشيا مع مذهبه فى الحقيقة ـ ما جعله يسمح للفنانين بتصويره هو شخصيا كما يبدو فى الحقيقــة . ولو انك ذهبت الى المتحف المصرى لرأيت له تمثالا يجمع كل الصفات التى سردناها فى البداية عند الكلام عنه ويبدو أشبه برسم الكاريكاتير.

***

غير ان التوحيد وحياة الحقيقة لم تكن فيما يبـدو مما يتفق مع البلاد فى ذلك الوقت ، وكانت نوعا من الترف الفكرى الذى لايمكنه أن ينسجم مع المزاج الشعبى العام . ولقد أغلقت الهياكل والاماكن المقدسة التى اعتاد عامة الناس أن يؤموها ، وحرم ذكر أوزيريس وما عاد الفلاح المصرى يستطيع ان يضع فى حقله تمثالا صغيرا له لـكى يطرد به الارواح الشريرة . وما عاد الراعى يستطيع أن يضع رغيفا وجرة ماء تحت الشجرة لـكى ينجو من غضب الآلهة . بل ما عادت الامهات يستطعن أن يرددن ما تعودن عليه من الاسماء القديمة المقدسة والصلوات التى تطرد عن أطفالهن شياطين الليل والظلام.

فمـا كان أوزيريس لينهزم أمام آتون ، ذلك الاله الغريب الذى بلغ من التجريد درجة تكاد تحوله من اله الى معادلة رياضية بحتة .

ولقد أدت مصادرة الآلهة القديمة الى نتائج اقتصادية لايمكن أن تكون قد خطرت على بال اخنـــاتون حيث

يعيش فى عزلته ونشوته الاتونية الخاصة. وانتهى الحال الى خراب بيوت الطوائف التالية :

ـ المثالون الذين يصنعون تماثيل الآلهة ويبيعونها

ـ خبازو كعك الشعائر الذى يباع فى الاعياد الدينية.

ـ صناع التمائم وبائعوها على أبواب المعابد .

ـ الخطاطون والرسامون الذين يزينون القبور برسوم وتلاوات من كتاب الموتى وغيره .

ـ الكهنة والممثلون الذين يقومون بالتمثيل الصامت فى الهياكل المقدسة .

ـ الاطباء الذين كان نصف علاجهم قائما على تلاوة التعازيم !

***

كل هذا واخناتون لا يشعر أو يشعر ولا يكترث ، وسط أتباعه من سكان المدينة الجديدة الذين آمن بعضهم بآتون حقا فى حين آمن أكثرهم نفاقا وانتفاعا. وفى برود تام تجاه الاحداث العامة فى الداخل والخارج واصل اخناتون استمتاعه بالحقيقة ، يتفسح هو والحلوة تيتى بين الناس بملابس خفيفة تكشف من أجل الحقيقة أكثر مما تستر ، وأمام الناس لا يجد أى مانع من أن يقبل الحلوة أو يمد يده الكريمة لكى يداعب ما حلا له من أعضاء جسمها الملكى . ما شعر المسكين ان عاصمته الهادئة المترفة الناعمة ما هى الا جزيرة صغيرة وسط بحر من السخط والتذمر ، وان ملايين اللعنات لا تبرح تنصب على آتون وعلى أسلاف أسلاف اللى جابه .

واذا كانت الفدد مسئولة عن تلك الصـــورة الفريبة التي شكلت بها جســمه ، واذا كانت هى التى ألهبت حواسه بتلك العاطفة الدينية الحادة وألهمته بكل تلك الافكار والقيم الجديدة ، فيبدو انها قد بدأت فى النهاية تنقلب عليه وتلهب حواسه بأشياء مختلفة تمام الاختلاف . فلا بد ان شيئا غريبا طرأ عليه حتى جعله فى آخر الامر يطرد الحلوة من قصره وينفيها فى قصر آخر فى أقصى المدينة ، ساحبا منها لقبها الدينى الذى كان قد منحه لها ومعطيا اياه الى اخيه الاصغر . ولا بد ان اختلالا كبيرا فى الفدد المذكورة هو الذى جعله يداعب أخاه هذا ـ كما يبدو فى أحد الرسوم ـ بطريقة تتنافى مع علاقة الاخوة ومع علاقة الذكر بالذكر على وجه العموم . وتكون داهية لو ان المؤرخ السوفييتى فليكوفسكى كان صادقا فيما ذهب اليه من ان اخناتون هو المصدر المصرى لتلك الاسطورة « اوديب الاغريقية » ، وذلك بما عمد اليه اخناتون ـ لا المؤرخ السوفييتى ـ من اقحام جسمه الملكى فى فراش السيدة والدته .

***

غير انها مجهولة جدا تلك الفترة الاخيرة من حيـاة اخناتون ، ومن الصعب على أى من المؤرخين أن يدلى فيها برأى قاطع ، فلا أحد يعرف متى مات نبى التوحيد ولا كيف مات ، ولا أحد يعرف على وجه اليقين ماذا فعلت الحلوة بنفسها بعد أن ترملت . والذى يهمنا هو انه ما كاد اخنـاتون يختفى حتى اختـفى معه آتون والدين الجديد ، فعادت كلمة آمون لاحتلال مركزها فى اسم أخيه توت عنخ ، وانطلق البخور من معـابد طيبة مقرونا بدعوات الـكهنة على الفرعون الملحد الذى مات.

- ٢ -

تمثال للحلوة

ناظرا الى ذلك التمثال الرائع لرأس نفرتيتى أشعر بحسد شديد للوغد الذى صاغته يداه ، لا لعبقريتـه الفذة فحسب وانما للمتعة النادرة التى لابد أن تمرغ فيها طوال المدة التى استغرقها صـنع التمثال . فلو اننى كنت مكانه لعملت حسابى على الا تنتهى تلك المدة أبدا ، واقطع ذراعى ان قامت نفرتيتى من أمامى قبل عام كامل على الاقل !

اذ اتخيـل الحلوة « نفرت معنـاها الحلوة » وقد جلست أمامى فى جلال هادىء على خلفية موسـيقية مطربة ، وأنا أتأمل وجهها الجميل الحزين وأتفحصه والتهمه وأنهشه بتلك الحربة الوقحة التى لايمكن أن تسمح بها الانثى لعين غير عين الفنان . فمن حقى بل من واجبى أن أتشرب هذا الوجه الى أعماق روحى ، والا فكيف أنجح فى أن أنطق به تلك الـكتلة الصماء من الحجر الجيرى ؟ وما من شك فى ان نظراتى سـوف تنحدر بين حين وآخر الى مناطق من جسم السيـدة لايبررها نحت تمثال لرأسـها ، متجولا بعين الفنـان الذواقة بين الـكنوز الملـكية الرابضة خلف الفستـان الشفاف الذى تميزت به رّافة الفرعونيات الشيك .

فهى متعة كما قلنا نادرة ، دعك من المتعة الاخرى التى تنتظرنى هناك ، متعة الحوار الفكرى مع ذلك العبقرى الفذ اخناتون ، نبى التوحيد الذى عاش فى الحقيقة . فما أظن انه كان ليـــتركنى بمفردى مع الحلوة مدة طويلة ، من ناحية لـكى يستوثق من ان نظراتى اليها نظرات فنية خالصة ، ومن ناحية أخرى لـكى يأخذ رأى زوجته وحبيبته فيما هو عاكف على كتابتــه من الاشعار الدينية .

بكتفيه المنحدرتين وكرشه المنتفخ وفخذيه الغليظتين يدخل علينا سارحا متمهلا ، فى عينه نظرة حالمة متصوفة وفى يده ورقة بردى وقلم .

ــ يا أيها الاله الذى ساغ نفسه بنفسه (هكذا ينشد بصوت أعتقد انه رفيع ــ والـكلمات للعلم من تألف اخناتون لا تأليفى) ــ يا صانع كل أرض وخالق ماعليها .. أنت يا اله يا أوحد .. لقد خلقت الارض حســبما تهوى أنت وحدك .. خلقتهــا ولا شريك لك .. يا من تسطع جميلا فى أفق الســماء .. يا آتون الحى يا بدء الحياة ..

ثم ملتفتا الى زوجته :

ــ ايه رأيك يا حلوة ؟

فتلمع فى عين الحلوة نظرة اعجاب صادق وتقول :

ــ هايلة ياتونى ، هايلة !

تونى هو اسم التدليل الذى لايمكن ان تكون الحلوة قد وجدت احسن منه ، والـكلمات كما قالت رائعــة حقا . أول كلمات قيلت فى التاريخ عن الاله الواحد ،

فما حاجة امبراطوريتنـــا المتماسكة المتوحدة الى اكثر من اله ؟ وينحنى تونى ليطبـــع على خد الحلوة قبـــلة شاكرة ، ثم يولينا ظهره ويبتعد بورقة البردى مهمهما بتلاوات آتونية مبهمة .

***

وأتناول أنا الازميـــل النحاسى والمطرقة الخشبيـــة واشرع فى معالجة الحجر بما نســـميه نحن الفنـــانين « تهييش الفورمة » ، واجف القلب بما يتنـــاسب مع تلك اللحظات التى ربما حددت مستقبل التمثال كله . وبينما أدق بالازميل فيما سوف يصـــبح رأس السيدة أراها تعتدل فى جلستها لـــكى تضع ساقا على ساق ؛ الامر الذى يوحى الى بفكرة .

ـ ما تيجى اعمل لجلالتك تمثال كلى ؟

فتهز رأسها وتقول: « تؤ . . » ، مضيعةعلى ماتعرف انتى أطمع فيه من حق المعالجة الشاملة للجسم الجميل . وشيئا فشيئا تبدأ معالم الرأس الخارجية فى الاتضاح، وصوت اخناتون يبلغنا قبل ان يدخل علينا ، مواصلا انشاده من ورقة البردى التى تتأرجح فوق كرشـــه العظيم .

ـ انت الاب والام لـــكل ماخلقت .. اذا غربت فى الافق الغربى أظلمت الارض واختبأ الناس فى الحجرات وقد غطوا رءوسهم .. والســـباع تخرج من جحورها والثعابين تنســل لتلعع .. بعد أن استراح خالقها فى افقه الغربى ... ايه رأيك ياحلوة ؟

ـ رائع ياتونى ، رائع !

ولـكنني فى هذه المرة لا اشعر انني راض عن كلامه كل الرضا . فالغروب فى نظرى ظاهرة فلـكية عادية واذا غربت الشمس فليس هناك ما يدعو الى افتراض ان آتون يستريح .

ـ يا خالق الجرثومة فى المرأة وصانع البذرة في الرجل .. يا من تهب الحياة للجنين فى احشاء أمه وتسكن من روعه فلا يبكى .. يا من تهب نسيم الحياة لتحيا به كل مخلوقاتك ..

لابأس ياتونى ، ولا عجب ان نشيدك أعجب داؤد فيدما بعد فردده فى واحد من مزاميره . ويخرج فأواصل أنا العمل ، وما أجمل هذا الجبين الاسمر الذى بدأ يستدير بين يدى . فبينما أنا أعمل أفاجأ ذات يوم بشخصية جديدة تطرأ على المكان ، سيدة فى أواسط العمر قصيرة محندقة ذات جمال ماكر . السيدة «تى» أم اخناتون وأرملة امنحوتب الثالث ، التى لاسباب لا أعرفها قد وفدت من قصرها بطيبة الى قصر ولدها بتل العمارنة . من التمثال تقترب فى خطوات ثعبانية وتقف لتتفرج ، لحظة من التأمل الصامت ثم تنبعث منها ضحكة ساخرة :

ـ ههىء ! حجر جيرى ؟ علي أيامنا كانت التماثيل جرانيت !

وتتجه متقصعة الى كنبة قريبة لتجلس عليها ، فى اللحظة التى يدخل فيها اخناتون وبين يديه ورقة البردى الخالدة .

ـ أما الاشجار والنباتات فهى تزدهر .. وأما الطيور

فهى ترفرف خارجة من أوكارها تسبح بحمدك ..
وتقفز الحملان على أقدامها وكل مخلوف تهتز اعطافه ..
لانك تشرق من أجلها يا آتون الحى ..

ومرة أخرى لا أرتاح الى كلامه ، اذ أشعر ان الهه هذا يوشك أن يكون بشرا مثلنا ، والاله كما أحبه أنا يجب أن يتنزه عن صفاتى وأن يكون مختلفا منفردا ليس كمثله شيء ..

والملك فى هذه المرة وقف يتلو النشيد على أمه لا على زوجته ، واقفا أمامها بالورقة التى تهتز على كرشه الفذ .

— ايه رأيك يا مامى ؟

— شربات يا روحى شربات ! آمون يخليك لى ياحبيبى !

فينتفض اخناتون كالملسوع :
— بتقولى ايه ؟ آمون !

فتضرب الارملة على صدرها :

— يوه يقطعنى .. قصدى آتون ! ما تزعلش منى ياتونى .

ومطبطبة على كرشه تجذبه ليجلس على الكنبة بجانبها ، وعلى خده الملكى نطبع قبلة . والحلوة ترقب المنظر وقد احمر وجهها ، صدرها يعلو ويهبط فيفضح ما تشعر به من غيظ .

— قوم بينا نتمشى فى الجنينة ..

وتنهض الارملة فينهض ولدها ، وتتأبط ذراعه ويخرجان وهى تتلوى بذلك الجسم الثعبانى الذى لابد

قد منح امنحوتب الثالث اكثر من ليلة لاذعة . وتقاطيع الحلوة قد بدأت تكتمل بين يدى ، الخدان الفائران والانف المدبب الجميل ، والجيد الناعم النحيل الذى أتنازل عن عامين من عمرى لكى ادفن فيه أنفى .

وابتسامة عريضة فاتنة ترتسم على شفتيها حين ترانى ادخل عليها ذات يوم بصندوق الالوان .

ــ خلاص ح تلوننى ؟

ــ خلاص يامولاتى ..

وفرحا لفرحتها اخرج الالوان وأشرع الفرشاة وأبدأ فى العمل . وهذه الزرقة السابحة فى بياض العينين الجميلتين ، لابد أن أقترب من الحلوة كى أحدق فى عينيها . عطرها يملأ صدرى ويسكرنى ، واختلاجة صغيرة فى زاوية فمها وقد تقابلت عيوننا فى تلك اللحظة من النشوة الفنية الغامرة . قريبة منى حتى أكاد ألامسها غير انها فى الوقت نفسه ــ ماأتعسنى ــ ابعد عنى من بلاد بونت . ولكنى أمنى نفسى بأن تضيق المسافة بيننا عندما يكتمل تمثالها وتعرف أى عبقرى أنا ..

ثم التفت ورائى فتصدر منى شهقة مباغتة ، اذ أفاجأ بأخناتون واقفا يرقب المشهد وقد تدلت ورقة البردى فى يده بجانب فخذه الغليظ . وبسرعة انتقل الى التمثال لكى أضع اللمسة الزرقاء فى بياض العين ، كى يعرف الرجل اننى لم أكن ألعب . ويقبل بنفسه لكى يلف ورائى ويرى عملى ، نظرة ينقلها بين التمثال وزوجته ثم يرفع ورقة البردى أمام عينيه .

ــ وأما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم

السفلى .. لتحيى به البشر ياسـيد الجميع .. فاذا ما ..

ـ تونى .. تونيتونى !

صوت للأرملة الطروب يقاطعه مناديا اياه من الخارج، فيولينا ظهره ويبتعد وهو يواصل الهمهمة . ونظرة غيظ تتراءى فى عين الحلوة فأتوقف حينا عن العمل مخافة أن تطلع تلك النظرة فى الصورة . والظلال المصفرة الخافتة فى وادى خدها الظليل ، واللون الوردى الجرىء على الشفتين الدسمتين اللتين أدفع عاما من عمرى لكى ألصق بهما شفتى .

ـ عاوزه اتفرج ...

هكذا تقول لى فأرفع يدا معترضة ، مخبرا أباها بأن فنانا حساسا مثلى شأنه أن يرتبك اذا تفرج الناس على عمله فى طور تكوينه ، وخير لها أن تراه عندما يكتمل حتى لا تحرم من فرحة المفاجأة .

ـ أصلى نفسى أشوف نفسى ...

ـ ح تشوفيها فى الوقت المناسب يامولاتى ...

وابتسم لها فتبتسم لى ، وأشعر ان المسافة قد بدأت تضيق كما رجوت ، وان شيئا جميلا قد بدأ يتولد بيننا عبر تمثالها الفاتن . فلولا شبح اخناتون الذى يجثم علينا لأمكننى أن ...

ـ خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر .. ولقد تفرقت ألسنتهم واختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم .. وهكذا ميزت بين الشعوب ..

مقاطعة جغرافية تزعجنى طبعا ، ومقاطعة أخرى كانت

تنتظر اخناتون نفسه . اذ يندفع الى الحجرة قائد من قواد الجيش وهو فى حال من القلق الشديد لكى يقول بصوت متلعثم :

ــ سوبيلوليوماس يامولاى !

فينظر اليه اخناتون فى بلاهة :

ــ سوبيلو ايه ؟

ــ سوبيلو ليوماس ، ملك الحيثيين يامولاى ..

ــ ماله ؟

ــ هجم على سوريا !

ــ هجم على سوريا ؟..

ــ ايوه يامولاى ...

ــ وخدها ؟..

ــ لسه شويه ، وعاوزيننا ضرورى نبعت لهم ٥٠ خمسين عسكرى !

ــ كده ؟..

ــ ايوه يامولاى ...

ــ طب روح انت وسيبنى أفكر فى الموضوع ..

فيخرج الرجل وتشرد نظرة اخناتون حينا الى الارض ثم يرفع ورقة البردى ويصحح فيها بالقلم شيئا . ومتنحنحا لانبهه الى اننى أريد العمل فى هدوء أشرع فى تظليل الانف الجميل للحلوة متمهلا متأنيا مشفقا من أن ينتهى التمثال وأحرم من هذه الجلسات اليومية الحلوة

ــ موش ح تخلص بقى ؟

هكذا تسألنى الحلوة كل يوم فأقول لها : هانت . والواقع ان التمثال يعتبر فى حكم المنتهى ولكننى يجب

أن أؤجل لحظة الفراق أطول وقت ممكن ..

ــ كل العيون ترنو اليك .. لانك آتون الذى يشرف على الارض .. انك فى قلبى .. ليس هنا من يعرفك سوى والدك اخناتون ..

وهذه وحق آتون أنانية صريحة سافرة كنت أحب أن أعلق عليها لولا دخول القائد سالف الذكر مندفعا كالمجنون :

ــ خدها يامولاى !
ــ هو مين ؟..
ــ سوبيلو ليوماس !
ــ خد ايه ؟..
ــ خد سوريا !
ــ كلها ؟..
ــ أيوه يامولاى.. ماهو لو كنا بعتنا له حبة عساكر.
فيرفع اخناتون يده مقاطعا :
ــ بس ! روح انت وسيبنى أفكر فى الموضوع .

***

فيخرج الرجل وتشرد من جديد نظرة اخنـــــاتون نحو الارض.. ومعالشرود هذه المرة شيء منالنفخ الذى يعرب به عن انزعاجه الشديد من هذه المقاطعات التى تفسد عليه هدوءه وشاعريته . ثم يرفع ورقة البردى أمام عينيه ويواصل الانشاد :

ــ نعم ليس هناك من يعرفك غير ولدك اخناتون.. وقد خلقت العالم وجعلت النـــاس يحيون ... كل ذلك من أجل ولدك الذى نشأ منك !

وإذا كانت السابقة انانيــة فهذه لا تخرج عن كونها نذالة . فليس يمنعنى من توبيخه سوى ما أذكر من قول الحكيم بتاح حوتب :

ــ احن رأســك لرئيسك والمشرف على قصر الملك لــكى يظل بيتك مفتوحا !

فما بالك وهذا الانانى هو الملك نفسه ؟

ــ تونى ... تونيتونى !

صوت الارملة الطروب يناديه من بعيد فيخرج ملبيا

ــ اف بقى ! موش ح تخلص أبدا ؟

هكذا تقول الحلوة وقد نفد صبرها ، ولمسة نهائيــة على أنفها الجميل ثم أقول لها فى انتصار:

ــ خلاص يامولاتى ! تفضلى شوفى .

فتهب من مقعد الموديل كطفلة فرحة ، وأمام صورتها تقف متســـــعة العينين فاغرة الفم ، مفتونة مبهورة مسحورة متلاحقة الانفاس تلهث :

ــ ياسلام .. ياسلام .. ياسلام ..

ــ عاجبك يامولاتى ؟

ــ هايل ! رائع ! مدهش ! جنان !

***

وتحيد ببصرها لتنظر الى وكأنها ترانى للمرة الاولى ، لــكى تأخذ فكرة عن الرجل الذى جادت عبقريته بهذه التحفة المستحيلة . ثم ترد بصرها الى التمثال وقد بدا عليها شىء من الحيرة .

ــ لــكن عاملنى حزينة كده ليه ؟

ــ موش أنا يامولاتى اللى عملتك حزينة ..

— يعنى أنا شكلى حزين كده ؟

فأريد أن أقول لها — ولا أفعل طبعا — ان حزنى أنا هو الذى ربما يكون قد انعكس على صورتها ، حزنى على هذا الجمال الذى ليس لى سوى أن أحبه صامتا .

وتواصل هى تأمل التمثال ثم تقول :

— أنا موش ح اسـيبه هنا . ح انقله لقصرى الخصوصى ..

— لكن مولاتى عايشة هنا ...

— موش بعد النهارده .. أنا كنت مستنيح لما التمثال يخلص ...

وتشير الى خارج المكان شارحة :

— موش شايفه هو وأمه عاملين ايه ؟

فيرتعد قلبى بشدة وأنا أقول :

— بس فيه حاجه يامولاتى ...

لحظة من التردد ثم أضيف :

— التمثال ناقصه شوية رتوش ...

فتصوب الى بعينيها الفاتنتين نظرة طويلة صامتة ، ولمسة مكر تتراءى فيها وهى تقول بابتسامة مغرية :

— ما تيجى تعملها هناك ؟

وتتركنى وتبتعد ، غير ناسية قبل أن تخرج أن تلتفت مودعة اياى بابتسامة عذبة من فوق كتفها . وعواطف جياشة تجرفنى ، ودق شديد فى قلبى لا أستغرب ان يصل صـوته الى سوبيلو ليوماس ! فهناك فى قصر الحلوة الخاص لا أشك فى ان العمل سيكون أمتع منه هنا وسط ماجريات التاريخ . وذات يوم فى أواخر

الاصيل قد تجتمع حول تمثالنا المشترك لكى تشرب، نخبا أو نخبين ، من النبيد الحلو الذى علمنا أوزيريس صنعه فأحسن تعليمنا . وعندئذ سوف أشعر بأن عيون الحلوة فى حاجة ماسة الى شيء من الرتوش ، ومنها اقترب كما فعلت من قبل لأنهل من عطرها ومن الزرقة السابحة فى بياض العين . واختلاجة جديدة حلوة فى شفتيها تدعونى الى تتويج علاقتنا بما هى جديرة به ، بينما ينحدر آتون خلال قوس قزح من السحب الملتهبة ليرتاح فى أفقه الغربى !

- ٣ -

حتشبسوت وأنا

للأجيال القادمة أكتب هذه الكلمات ـ أنا سينموت كبير المهندسين ببلاط تحتمس الثانى ـ معترفا بأننى لم أنجح قط فى أن أحب هذا الرجل ، بملامحه الانثوية وشعره المشط بعناية زائدة ، وبما يقصه الجنود من انه فى المعارك القليلة التى خاضها كان دائما واقفا فى مؤخرة الصفوف يتحسس شعره ، على العكس من والده العظيم تحتمس الاول . وليس هذا غريبا ، وقد ولد لأبيه العظيم من احدى المحظيات ، اذ لم تلد له الزوجة الملكية احموس الا بنتا واحدة هى حتشبسوت. ولقد تردد ان تحتمس الكبير كان يحب أن يورث العرش لتلك البنت الجميلة لولا تقاليد البلاد التى لم تسمع حتى ذلك اليوم بملك مؤنث. وهكذا صار العرش حقا لذلك التحتمس الثانى ، وذلك بعد أن يتزوج ـ وفقا لنفس التقاليد العتيقة الصارمة ـ من الوارثة الشرعية حتشبسوت .

ولكم رثيت لها يوم أرغمت على هذا الزواج التعس، فأى نفع يمكن أن تجده تلك الفتاة ذات الحيوية الدافقة فى أحضان ذلك الشاب البنوتة ؟ وما دمت فى نوبة الاعتراف فأقر بأننى أحببتها من أول مرة رأيتها فيها ؛ ذلك الحب الذى كان مكتوبا له بالطبع أن يكون صامتا

حزينا . ولعلها استشعرت اخلاصى لها من نظرات عينى فأسندت الى ـ بجانب وظائفى الاساسية ـ وظيفة المشرف على تربية طفلتها نفرورع ، كبرى الطفلتين اللتين لا أفهم كيف نجح زوجها فى انجابهما منها . وكان بطريقة أكثر غرابة قد نجح فى أن ينجب من احدى المحظيات ولدا أسماه تحتمس ، وهو الحادث الذى كان سببا فى كل ما أعقب ذلك من المتاعب . فوفقا لمفهوم تحتمس الثانى كان من الطبيعى أن يخلفه ذلك الولد فى الحكم ، وذلك عن طريق تزويجه هو الآخر من أخته نفرو ، وهو ما كادت تسمع ذلك من زوجها حتى ضربت على صدرها فى فزع قائلة :

ـ ياندامتى !.. بنتى أنا تتجوز ابن الـ . . . ده ؟ ياخى ده بعدك انت وهو !

فانكتم تحتمس الثانى ولم يقل شيئا ، ولكن مؤامرة دنيئة كانت تحاك فى ذهنه المريض . وكان الولد أكبر من الخامسة بقليل عندما رأى أبوه أن ينفذ تلك المؤامرة منتهزا فرصة أحد أعيادنا الدينية . فبينما سار موكب كهنة آمون وقد حملوا تمثال الاله كالمعتاد، تنكب الموكب فجأة عن طريقه المرسوم ـ بايعاز من الملك ـ واتجه الى حيث يجلس تحتمس ، متوقفا عنده ومفصحا بذلك عن رغبة الاله فى أن يكون هذا الطفل ملكا . وانى لاذكر كيف استولى الذعر على الطفل المسكين حتى صرخ وأراد أن يجرى فتعثر وانكفأ على وجهه وهو يجعر .

وأذكر اننى رأيت الدموع فى العيون الحلوة

لحتشبسوت وهى تقول لى :

ـ ده فصل يعمله فى ده ؟

ـ هو فى الحقيقة فصل موش ملكى بالمرة . بس طبعا جلالتك عارفه مين والدة جلالته .

وكان من أثر هذا الامر أن اضطرت حتشبسوت الى الانصياع لرغبة زوجها ، فتم له ما أراد من تزويج تحتمس لنفرو لكى يرث من بعده عرش البلاد .

وذات يوم أتانى نبأ لا أدعى انه أحزننى كثيرا ، عن ارتفاع تحتمس الثانى الى السماء ـ كما يقول النبأ ـ لكى يندمج بين الآلهة . وما أظن ان حتشبسوت هى الاخرى كانت حزينة ، عندما دعتنى ذات ليلة لكى تأخذ رأيى فى الطريقة التى يجب أن نتبعها فى احباط أثر المؤامرة المشار اليها سالفا. ففكرت فى الامر حينا ، توطئة لان أقول :

ـ شوفى لنا قزازة ..

فرمقتنى فى بلاهة زادتها جمالا :

ـ قزازة ؟.. قزازة ايه ؟

ـ نبيت ، بيرة ، أى حاجه علشان الواحد يفكر بمزاج ...

فصفقت وما هى الا ثوان حتى رأيت أمامى بارا كاملا ، والنبيذ كما أكدت لى السيدة معتق من أيام امنمحتب الاول . فصببت لها كأسا ولنفسى آخر ، وراشفا من دماء أوزيريس المباركة قلت لها وأنا أستنفر كل ما فى نفسى من أصول الحكمة ...

ـ شوفى يامولاتى .. موش جلالته عايز يفهم الناس

ان آمون بنفسه هو اللى اختار ابنه تحتمس ؟

ـ أيوه ...

ـ طظ ياستى ! برضه جلالتك أحق بالعرش منه..

ـ على أساس ايه ؟

ـ على أساس ان جلالتك تبقى بنت آمون مباشرة !

فازداد وجهها لشدة دهشتها جمالا ..

ـ أنا بنت آمون ؟

ـ ده اللى لازم الناس تفهمه ..

وشرعت أحكى لها كيف ان السيدة احموس ـ والدتها ـ كانت نائمة فى مخدعها ذات ليلة عندما انتبهت الى عطر عجيب يملأ الحجرة ، وفتحت عينيها لترى آمون بنفسه واقفا بجانب السرير يتأمل ما برز من مفاتنها الملكية ، توطئة لأن يقول :

ـ لقد اخترت أن تكون لى منك بنت اسمها حتشبسوت ، وقررت لها أن تحكم البلاد .

فذهلت الملكة من هذه الكلمات ، كما سباها جمال الاله فهتفت تقول :

ـ ما أعظمك وما أجمل وجهك .. وما أحلى ان تضمنى اليك ...

فلم يكذب الاله خبرا ، وفى الصباح استدعى الها آخر هو خنوم صانع البشر ، واليه أدلى بهذه التعليمات :

ـ لتصنع ابنتى هذه وقرينتها من أعضائى هذه ، ولتشكلها بجمال لا مثيل له بين الآلهة ، فسأمنحها كل شيء لتصبح مثل رع الابدى .. فاهم ؟

وكان لآمون ما طلب ، وما هى الا شــــهور حتى وقف الاله تحوت بنفســـه ليشرف على الالهة المولدة سيشات وهى تتلقى على يديها الطفلة حتشبسوت . وقالت عنها الالهة حتحور فأحسنت القول : لقـد امتلكت البلاد وكل ما تظلله الارض والسماء بينما كانت فى بطن أمها .

ــ ايه رأيك يامولاتى فى القصة دى؟ هى طبعا ناقصها شوية تفصيلات انما يعنى . . .

فقاطعتنى وهى تقول بانفعال شديد :

ــ دى قصة هايلة ! انت عبقرى ! انت مدهش ! اشرب كمان .. اشرب . . .

وملأت كأسى بنفسها وقرعنا الـكأسين نخب قصتنا، ولـكن شيئا من الخوف تراءى فى عينيها .

ــ لـكن تفتكر حابوسنب يوافق على نشر قصـــة زى دى ؟

حابوسنب لعلم الاجيال القادمة هو كبير كهنة آمون، وقلت لها شارحا :

ــ أنا شــايف ان منصب حاكم الوجه القبلى خالى من مدة ، ومتهيــألى أن حابوسنب ما يتــأخرش عن الجمع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية .

وتلاقت عيوننا بنظرة ماكرة وقرعنا الـكأسين من جديد . واذكر ان الطفل تحتمس دخل علينا فى هــذه اللحظة هو ونفرورع فقالت له عمته :

ــ انت لســــــــه مانمتش ياتوتى ؟ خديه بانفرو وروحوا ناموا .

فخرج الطفلان وتركانا وحدنا ، وكأس خامسة شعرت أنها معتقة من عهد خوفو . وفى عين حتشبسوت تراءت نظرة غير ملكية فتنتنى ، وفى الصباح كنت قد أصبحت بأمرها صاحب الوظائف التالية : حامل ختم ملك الوجه البحرى ، ومدير الحقول والحدائق والابقار وأرقاء الارض وشون غلال آمون ، ومراقب البهو الفسيح فى البيت الرسمى ، ورئيس بيت التاج الابيض ، ومدير المقر الملكى ، ومراقب جميع الصناعات الالهية .

ولكننى بالطبع لم أمارس بالفعل أيا من هذه الوظائف مكتفيا بأن أقبض أجرها ، وذلك لانشغالى بما هو أهم وأبقى ، بناء معبد لحتشبسوت فى الدير البحرى ، على جدرانه تصور بالالوان الزاهية تفصيلات ذلك الميلاد الالهى لصاحبة الجلالة .

وذات يوم أقبلت حتشبسوت لتتفرج على العمل ـ مسرورة طبعا ـ ثم لحق بها الغلام تحتمس الذى أصبح فى العاشرة من عمره .

قالت له حتشبسوت بنوع من السرور :

ـ شايف الصور الحلوة دى ياتوتى ؟

فاحتقن وجه الغلام وتطاير الشرر من عينيه :

ـ قلت لك ألف مرة أنا موش توتي ! أنا تحتمس الثالث ... فاهمه ؟

فضحكت حتشبسوت وقالت :

ـ معلهش يا صاحب الجلالة ..

ومدت يدها لتداعب شعره فدفعها وابتعد وهو

يبرطم . وهذا عيب اطفالنا ـ نحن الفراعنة ـ انهم يكبرون أسرع من اللازم ، وفيما يشبه غمضة عين رأيت أمامى فتى يقترب من العشرين ، قصيرا عريض الكتفين مدكوك العضلات ، غاضبا أشد الغضب وقد عرف ان حتشبسوت سوف ترسل الى بلاد بونت اسطولا مصريا فى بعثة سلمية .

ـ سلمية عشان ايه ؟» هكذا صاح » ليه ما تكونش حربية ؟

فرمقته حتشبسوت فى برود وقالت :

ـ وليه ما تكونش سلمية ؟

ـ وليه ما تكونش حربية ؟

فردت عمته وهى تحاول المحافظة على هدوئها :

ـ وليه ما تكونش سلمية ؟

ـ لاننا لازم نحارب .. لازم نورى الدنيا قوتنا !

ـ الدنيا عارفه قوتنا كويس ، والبركة فى جدك تحتمس الاول .

ـ وليه ما نعملش زى جدى ؟ ليه ما نفتحش آسيا ؟

ـ ونفتحها ليه ؟

ـ علشان تبقى بتاعتنا ...

ـ تحب حد يفتح مصر ؟

ـ لا طبعا ...

ـ طب ليه نفتح آسيا ؟

ـ ده سؤال حريمى ! البلد دى موش نافعة طول ماحاكماها ست !

وهنا نفد صبر حتشبسوت ..

ـ ولد ! انت عارف بِتكلم مين ؟

ـ ايوه عارف .. عمتى ومرات أبويا وحمـــــــاتى وحرامية عرشى !

وخرج بسرعة قبل أن يتطور الموقف . وسمعت انه فى ذلك اليوم قتل أسدين وسيد قشطة . ولم يكن هذا الحادث ليمر دون أن يترك أثره على حتشبسوت نفسها ، فلم ادهش كثيرا عندما رأيتهـــا بعـــد أيام محمولة على محفتها الملــكية وقد تدلت من ذقنها لحية مستعارة ، كأنها تريد أن تقول للناس انهم اذا كانوا يريدون رجلا لمنصب الملك فهى أرجل من أجدعها رجل ! وشكرا لآمون على اننى حين زرتها فى المساء لم أجدها بتلك اللحيـــة المضحكة ، فلا شك ان رجلا حساسا مثلى لن يحلو له السهر مع سيدة ملتحية .

***

ولست محتاجا بالطبع الى أن أصف لك مدى الحزن الذى دهمنى فى ذلك اليوم المشئوم من سنة ١٤٨٣ قبل الميلاد ، عندما ارتفع الصراخ والعويل فى قصر مولاتى معلنا عن وفاتها المفاجئة ، وأكاد أقسم انها ما ماتت بل قتلت بطريقة أو بأخرى . كثيرا ما سمعنا عن رجل يقتل عمته ليرثها ، أو يقتـــل زوجة أبيـــه لينجو من اذلالها ، أو يقتل حماته ليخلص من خلقتها ، فما بالك وهذه السيدة عمة تحتمس وزوجة أبيـــه وحمـــاته فى وقت واحد ؟

وبقلب يتمزق من الحزن وقفت أرقب رجال الملك الجديد وهم ينهالون بالمعاول على تماثيل مولاتى فيحيلونها

حطاما ، ثم يتجهون الى المعبد الذى أفنيت فيه عمرى لـكى يشوهوا جدرانه ويزيلوا منها كل اشـارة لاسم السيدة العظيمة التى بنته .

ودقات طبول الحرب بدأت تدوى فى أرجاء المدينة ، وأدركت ان أيام السلام الحلوة قد ذهبت الى الأبد . وطابور طويل من العجلات الحربيـة يقعقع فى الطريق ومقصده آسيا . عجلة وراء عجلة تمر أمامى وأنا وراء القضبان الحديدية التى تسد نافذة حجرتى فى سجن طيبة العمومى !

— ٣٠ —

سهرة عارية

كان يسرنى أن اكون صديقا لواحد من نبلاء الفراعنة الذين خلفوا لنا فى قبورهم تلك التشـــكيلة الفذة من الرسوم الرائعة ، مثل النبيل نخت الذى تزين جدران قبره الصورة الشهيرة للعازفات الثلاث ، وبنات كثيرات غيرهن يتقصعن على الجدران شـــبه عاريات ، حتى ليحار المرء هل هو فى قبر او فى كباريه !

أو النبيل « منه » الذى تنتشر على جدران قبـره صور له وهو يشرف على عمليات الزرع والقلع وخبز العيش وصنع البيرة ، مصرا على أن يحتفظ لنفسه فى الآخرة بنفس الالاطة الادارية التى لازمته فى الدنيا .

أو النبيل الثالث رخمرع الذى صـــور نفســـه على الجدران وهو يحصل النقود من الاهالى محولا المـكان من قبر الى مأمورية ضرائب .

لاشك اننى كنت أستفيد كثيرا من صـــداقة تربطنى بهذا النبيل أو ذاك ، لا من الناحية المادية فحسب ، وانما من الناحية الثقافية أيضا . ففى كثير من المناسبات لابد أنه كان يدعونى لقضاء الويك اند فى ضيعته الكبيرة بريف طيبة ، وانت تعرف مدى حبى للريف ، وفى الحقول انطلق معه لـكى نشرف على الزراعة سائرين على الاقدام أو مضطجعين على محفتين عاليتين يحملهمـــا عدد من

العبيد . الحقول حولنا خضراء جميلة فسيحة ، وبلايين العيدان تتمايل بأنفاس أوزيريس المباركة . والترع والقنوات مملوءة بدموع ايزيس الجارية ، على سطحها يطفو البط والوز الذى سنحشو به بطوننا فى حفل الليلة الساهر . ومع هذا الجمال الطبيعى لمسة علمية تتمثل فى بعض الاختراعات الجديدة التى تفتقت عنها عبقرية المهندس الفرعونى المعاصر ، وخذ مثلا هذا الاختراع المذهل المسمى بالشادوف ، كيف كان لنا بدونه أن نستخرج الماء من تلك الاعماق ونرتفع به الى تلك الاعالى ؟ أو المحراث ذو السكين الذى يجره ثوران فيحرث لنا الارض ولا الحوجة للعزق بالفأس . فريفنا كما ترى لا يشهد على عبقريتنا الزراعية فحسب ، وانما على ما قد بدأنا نأخذ به من أسباب التقدم التكنولوجى .

وصوت صراخ الفلاح حاف عار ضامر معروق وقد طرحه بعض الاتباع أرضا وهات يا ضرب ، وبسؤالى عن سبب العلقة أفهم انه متأخر فى سداد ما عليه لكل من النبيل ومصلحة الضرائب ، وان تلك هى الطريقة الوحيدة التى ترغمه على السداد . فاذا لم يدفع الفلاح ما عليه من الضرائب كيف كان لمولانا المعظم تحتمس الثالث أن ينتصر على الاسيويين فى مجدو، وأن يقتل فى أوقات فراغه مائة وعشرين فيلا ؟ وكيف كان يتاح لنا نحن — يقول صديقى النبيل — أن نقيم حفلة الليلة تكريما لكاهن آمون الاكبر ؟

والى تلك السهرة تهفو نفسى بشدة ، وساعة كاملة

قبلها أقف أمام المرآة لكى أستكمل زينتى . خط أسود رشيق أرسمه على كل من حاجبى بنوع خاص من الكحل ، أشبه بخطين أضعهما تحت جبينى الوضاء . وباروكتى السوداء أجرب تركيبها على رأسى فى أكثر من وضع حتى أحرز أفتن الاوضاع ، وعلى صدرى أسوى خيوط الخرز المزجج الذى يتدلى من قلادتى الجميلة . وكل ذلك طبعا بعد أن أكون قد طليت بالحناء أظافرى شأن كل جنتلمان فرعونى شيك . « ملحوظة : هذه الاجراءات حقيقية وليست من اختراع الكاتب » .

على باب البيت يستقبلنى صديقى النبيل بصفتى من الصفوة ، ثم يصحبنى الى البهو الفسيح الفخم الذى يرتفع سقفه على عدة أعمدة رشيقة تتوجها زهور اللوتس . يريد منى أن أتخذ مجلسى معه على المنصة الرئيسية المرتفعة ولكننى أعتذر عن ذلك ، اذ لن يلبث الكاهن أن يصل وأنا كما تعرف ياصديقى النبيل لا أحب مجالس الكهنة . خير لى واحدة من تلك الوسائد الجلدية الجميلة المرصوصة هناك جنب الحائط غير بعيدة من صف قدور النبيذ .

على الجدران حولى عشرات من الرسوم الفاتنة لزهور مختلفة الالوان وفاكهة ، ولطيور مذبوحة تتدلى رءوسها وتحيط بها بشاعرية لذيذة أكاليل العنبر والخشخاش ، فالمرء كما ترى يبدأ فى الجوع بمجرد أن يوجد فى تلك القاعة . ومنظر شديد الجمال يقترب منى ، لساقية متأودة الجسم سمراء تنحنى أمامى

باسمة وتهدينى على سبيل التحية زهرة لونس . الى أنفى أرفع الزهرة وأنهل من عطرها ، بينما أنهل من مفاتن الجسم الجميل أمامى ، اذ انها اذا استثنينا تلك الإسورة من معصمها وذلك العقد حول جيدها وذلك الحزام الرفيع حول خصرها وردفيها لا تلبس أى شيء على الاطلاق . يستطيع صديقى النبيل بالطبع أن يصرف لها ما يكسوها ، ولكنه فى تلك الحال ما كان يمكن أن يكون صديقى . واذا أنت عرفت ان هذه الساقية واحدة من عشرات غيرها يتجولن فى المكان لادركت بعض فوائد صداقة النبلاء لاسيما اذا كانوا من الاسرة الثامنة عشرة .

شيئا فشيئا يتوافد الضيوف حتى تكتظ القاعة بالناس رجالا ونساء ، على المنصة العالية حول النبيل والكاهن وعلى المقاعد المنتشرة فى القاعة وعلى الوسائد الجلدية حولى . وتقترب الساقيات الفاتنات بكئوس النبيذ ويدور الشراب .. وسرعان ما تتورد الوجوه وترتفع الاصوات وتلعلع الضحكات ويغوص الجميع فى بحر المرح الدافىء .

والموسيقى قد بدأت تتردد فى المكان والعازفات مثل الساقيات حسان شبه عاريات ، بأصابعهن الرشيقة المدربة يداعبن أوتار القيثارات والطنابير أو ينفخن فى الناى . وأخريات يطقطقن بالصنوج ويصلصلن بالشخاليل غير اللواتى يصفقن على الواحدة ، شيء وحق آمون آخر طرب . وعدد من الخدم يدخلون بعشرات الصوانى المحملة بأكداس من اللحوم والخضروات ومن

الوز والبط الذى رأيته فى الصباح طافيا على دموع ايزيس الطاهرة .

وفى حفلة كهذه لا مفر من أن التقى بتلك السيدة الفرعونية التى تركت أثرا يقول على لسانها :

ــ اعطنى ١٨ قدحا من النبيذ كى أشرب حتى انتشى ، فان جوفى من شدة الظمأ مثل القش ! فما أن أراها داخلة حتى أبتسم لها وأطبطب على الوسادة المجاورة داعيا اياها للجلوس بجانبى ، تلك الدعوة التى أستبعد أن ترفضها . وعطر شديد نفاذ ينبعث منها وهى تعتدل لتجلس ، وعلى وجهها الجميل من ألوان الزينة ما يشبه قوس قزح . مثل سائر المدعوات اللواتى يتأملن ملابس وباروكات بعضهن البعض ويتراشقن بنظرات فرعونية لاذعة . وناهلا من عطر جارتى أذكر نصيحة الحكيم بتاح حتب التى تقول :

ــ احذر المرأة الاجنبية فهى لجة عميقة الغور لايعرف تيارها .

ولكن الانسان فى تلك اللحظات يعرف ان أحسن ما فى أقوال الحكماء يمكن تجاهلها .. واننى لمشتاق الى الغوص فى تلك اللجة العميقة .

وما هما الا كأسان تشربهما جارتى الحسناء حتى تتراءى فى عينيها نظرة فرعونية نشوى وسرعان ماينبسط لسانها :

ــ موش فاكره انى شفتك قبل كده ..

هكذا تقول بصوت لابد أن تكون فيه بحة مطربة فأقول لها :

ــ اصلى موش م القرن ده .. انا م القرن العشرين
فتظنها نكتة وتضحك .. واسألها لكى أكون على بينة :
ــ حضرتك متزوجة ؟
ــ ههيىء .. مرتين .

وبلســــــــان بدأت تلويه الخمر تحكى لى كيف كان زوجها الاول من أنصار حتشبسوت فحبسوه ومات فى السجن ، وكيف كان زوجها الثانى من أنصار تحتمس فسقط شهيدا فى مجدو .

ــ أنا آسف جدا ..

ــ ولا يهمك ...

وتقرع كأسى بكأسها التى أظن انها السابعة ، وصوت مطربة قد بدأ يلعلع فى المــكان ...

ــ أنا أختك الاولى .. أنا لك كالحديقة التى غرست فيها الازهار .. أنا أسيرة حبك .. قبلتك وحدها هى التى تبعث الحياة فى قلبى .. وعندما أنالها سأدعو آمون أن يحفظها دائما والى الابد ..

أتمايل من الطرب وأقول يا وعدى ، وأصوات كثيرة تطالبها بالاعادة وما كانت بالطبع ــ كمطربة مصرية ــ محتاجة الى تلك المطالبة . واحدى الســـاقيات تقترب منا بصينية عليها أقراص صغيرة مثل العجين فتلتقط قرصا تضعه على رأس جارتى والآخر على رأسى .

ــ ودى فايدتها ايه ولا مؤاخذة ؟

هكذا أسأل جارتى فتقول انها نوع من الدهون العطرية المجمدة .

ــ وح افضل شايلها على دماغى كده ؟

ـ لا ما تخافش .. كلها شوية وتسيح !
وهنا أتذكر أمرا ..
ـ ما قلتليش اسمك ايه ؟
ـ نزمت ، وانت ؟
ـ محمرع ..
ـ ههىء .. عاشت الاسامى !

وتشرب كأسها العاشرة بينما تواصل المطربة الغناء .

ـ صوت اليمامة يتحدث الى . انه الفجر. أليس في نيتك الخروج ؟ لا أيتها اليمامة لقد وجدت حبيبى في فراشه ففاض قلبى سرورا .

ووالله ما فاض سرورا غير قلبى أنا ، هناك حيث أتربع على الوسادة بجانب القطة نزمت . واحساس بشيء يسيل على جانبى رأسى وينزلق على عنقى ، فأبلل اصبعى منه وأشمه في دهشة :

ـ ايه ده ؟

فتضحك نزمت من جهلي وتقول :

ـ موش قلت لك ح يسيح ؟ دنت باينك موش من القرن ده بصحيح !

وتشرب كأسها الحادية عشرة بينما تواصل المطربة الغناء .. ما أدرى والله هل أسكر من النبيذ أو من الغناء أو من الوز المشوى أو من عطرنا الفواح . وراقصة أفعوانية تتسلل الى المكان وتشرع في الرقص المحموم ، وبين حين وآخر تميل برأسها الى الوراء حتى توشك أن تقع ، ولكنها تنحنى كالقوس وتستند براحتيها على الارض وراء رأسها . كل العيون جاحظة في كل الوجوه

حتى وجه الكاهن ، ويمد يده ليحكم الازار حول فخذيه.
ـ حاسب شوية عينيك ح تنط من وشك !

هكذا تقول لى نزمت وهي تلكزني توطئة لان ترفع الي فمها كأسها الخامسة عشرة ، فاقول لها لأحذرها :

ـ ماسمعتيش نصيحة الحكيم امحوتب ؟
ـ قال ايه بسلامته ؟
ـ الخمر تطلق اللسان فحاذر أن نفرط فى الشراب.
وهنا يرتفع صوت المطربة قائلا :

ـ لقد استمعت الي نصائح امحوتب التى يرددها الناس فى كل مكان .. أين هو الآن وأين مسكنه ؟ لقد سقطت جدرانه وصار أثرا بعد عين !

فتلكزنى نزمت من جديد قائلة :
ـ سامع ؟ أهي ردت عليك !

وترفع الكأس وتجرع ، بينما امصمص رقبة اوزة لا ادرى لماذا تذكرني بالفلاح الذى رايته يضرب فى الصباح . ولكنني بالطبع أتناسى المنظر وأمد يدى الى خصاية على بركة الاله مين .

ـ امرح حتى ينسى قلبك انك ستدفن يوما .. واتبع رغباتك طالما انت حي .. ضمخ نفسك بما وهب الله لك من روائع الحقيقة .

وبانتهاء جارتى من كأسها تبدأ فى الغناء مع المطربة مترقصة على الوسادة :

ـ انتى سكرتى !
هكذا أحذرها فتقول :
ـ موش أنا اللى أسكر ..
ـ طب أنا ح امتحنك ...

ـ ازای ؟

ـ قولی حتشبسوت ...

فتقول حشتبسوت وحستبشوت وحنسبشوت وغير ذلك من التباديل دون أن تصل الى حتشبسوت أبداً .

ـ عرفتی بقی انك سكرانة ؟

ـ ولو .. أنا لازم أكملهم تمنتاشر ...

ـ ممكن اعرف ليه تمنتاشر بالذات ؟

ـ بعدد الاسرات ! موش احنا من الاسرة تمنتاشر؟ !

وتنفجر ضاحكة وتعاود الغناء مع المطربة ، الامر الذى يركز الابصار علينا .

وفى عين كاهن آمون أرى زغرة شـديدة موجهة لصديقتى ، غير مدرك ان المسكينة لا تعدو كونها ضحية بريئة للامبراطورية . غير اننى أرى انه من الافضل للجميع أن أبعدها عن المكان .

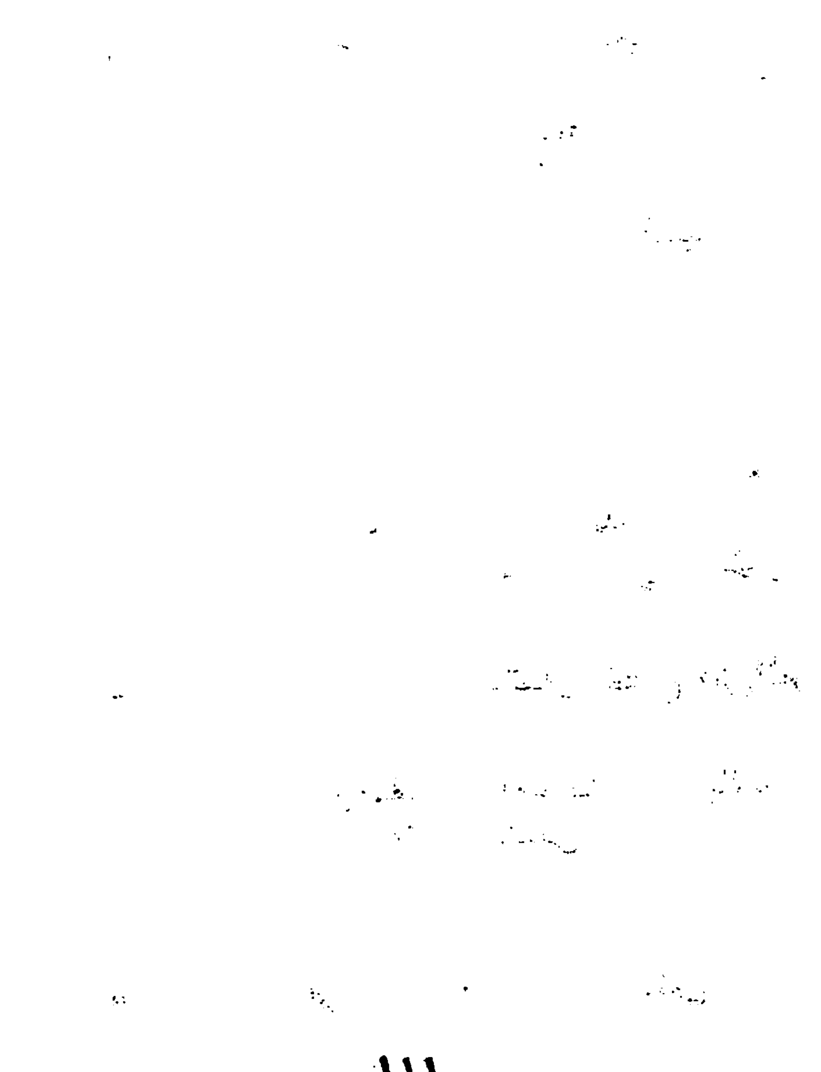
ـ قومى نشم حبة هوا ..

***

واسـاعدها على النهوض فتنهض وهى تترنح ، ومدندنة متخبطة تتجه معى انى باب الشرفة القريب . والحديقة رطبة مظلمة هادئة ، ليس ثمة صوت سوى صوت صفير صراصير الحقل فى ليل طيبة . وهناك فى الظلام أحاول أن أعثر على ما أسماه السيد امحوتب باللجة العميقة التى لا يعرف تيارها ، وما أظن انى سأوفق اليها . فأغلب الظن ان هذه السيدة هى نفس السيدة التى صورها الرسام الفرعونى وهى تفرغ مافى

جوفها على الارض قبل أن تلحقها الخادمة بكوز .

ومتنهدا فى الاستسلام الفرعونى المناسب اتجه الى القنـــــاة القريبة لـكى أنظف جونلتى بشىء من دموع ايزيس ، على صوت أنين بعيد تحمله الى الرياح ولا بد انه صوت الفلاح الذى ما برح يتوجع من علقة الصباح .



- ٥ -

رمسيس .. وبنتاؤر

بالرغم من كل ما صادفني من المتاعب لايسعني الا أن أعترف بأن حياتي مع رمسيس الثاني كانت مسلية للغاية الى جانب كونها مفيدة وممتعة . خذ مثلا يوم قال لي وفي عينيه الملكية نظرة ماكرة :

ـ بنتاؤر ! « وهذا هو اسمي الذي لا ذنب لي فيه» حضر نفسك للسفر .

ـ على فين يامولاي ؟

ـ على قادش طبعا .

وكنت قد سمعت انه يستعد لمهاجمة الحيثيين الذين بدأوا يتحرشون بحدود امبراطوريتنا في آسيا بقيادة ملكهم الوغد موتالي . ولكنني ما زلت في دهشة من رغبته في اصطحابي معه وأنا كاتب وشاعر لا خبرة له بشئون القتال .

ـ تسافر «هكذا شرح لي» علشان تتفرج على المعركة وترجع تكتب عنها تقرير ...

ـ طب ما جلالتك توصفها لي بعد ما ترجع بالسلامة؟

ـ لا ، لازم تشوفها علشان تنفعل ...

ـ لكن يامولانا ...

ـ انكتم !

فانكتمت . وما هي الا أيام حتى وجدتني جالسا

اتفرز فى احدى العربات الحربية ، غير بعيد عن عربة رمسيس التى تتصدر فرقة آمون. ووراءنا تقعقع عربات الفرق الثلاث الاخرى وهى فرق ست ورع وبتاح ، وقوامها جميعا عشرون ألف جندى من المصريين ومن مرتزقة البدو والاحباش وأهل سردينيا . ولم نكن فى حاجة الى أكثر من تسعة وعشرين يوما لكى نجد أنفسنا على مشارف قادش حيث عسكرنا حول العرش الذهبى الذى يجلس عليه مولانا فى الإلاطة المناسبة لتلك اللحظة التاريخية . وجلبة سمعناها عن قرب ثم أقبل عدد من الجنود يدفعون بدويين مفبرين يزعمان انهما هربا من جيش موتالى ، وان المذكور ماكاد يسمع بوصول جيش فرعون حتى ركبه الذعر وولى الادبار بجيشه جهة الشمال . أنباء كست وجه رمسيس بالزهو الشديد وقد صدقها ، فى حين كنت واثقا من انهما جاسوسان دسا علينا بغية تضليلنا .

ــ أنا رأيى يامولاى ...

هكذا قلت ، فقال ما هو متوقع :

ــ انكتم انت !

فانكتمت كعادتى ، وبدأ رمسيس الثانى يصدر الاوامر لفرقة آمون بالزحف الى الشمال لمطاردة الجبان الهارب موتالى ، على أن تلحق بنا سائر الفرق فيما بعد . هذه خطة لم تعجبنى بدورها . وكان رأيى ..

ــ باقول لك انكتم انت !

والى الشمال سرنا حتى تعبنا فعسكرنا مرة أخرى ، وفك الجنود المتعبون الثيران من عربات المؤن وبدأوا

يستعدون لتناول الغداء ..

ـ فرقة رع اتأخرت شويه ..

هكذا قال رمسيس وهو يلتفت حوله فى قلق ، ذلك القلق الذى لم يكن مقدرا له أن يدوم طويلا. فما هى الا لحظات حتى سمعنا ضجة بعيـــدة أخذت تقترب شيئا فشيئا ، واذا بالفرقة المذكورة تندفع نحو المعسكر فى حال من الفركشة التامة ووراءها عدد من عربات الحيثيين تطـاردها . فالبـدويان كما ترى كانا مجرد جاسوســين ، وغير بعيد منا كانت ترابط طول الوقت جيوش الثعلب موكالى . ومجموعة ضخمة من عربات، الاعداء رأيناها تقترب منا لـكى تحاصرنا ، قدرتها بما لا يقل عن ألف عربة تحمل كل منهـا ثلاثة مقاتلين .

وقعنا فى الـكمين ورحنا ـ هكذا قلت لنفسى ـ فى داهية . ولـكن هذا هو الفرق بين استجابة الشــاعر الغلبان للمواقف وبين اســـــتجابة مقاتل عظيم مثل رمسيس . فى لحظة واحدة تحول الرجل من رجل الى أسد مفترس ، وبصرخة مدوية لحرسه الخاص رأيته يندفع بعربته نحو الاعداء مثل العاصفة ، غير ناس قبل ذلك بالطبع أن يقبل تمثال آمون . ومن المكان المناسب لشــاعر حســاس مثلى ـ وراء صخرة كبيرة ـ رحت أرقب مجريات المعركة مذهولا من تلك القســـوة التى ينهال بها البطل على الحيثيين هو ورجاله القـلائل ، ومصفقا فى فرح صبيانى وأنا أرى عرباتهم تنقلب بمن فيها فى النهر الصغير . فلعل تلك الشجاعة الفذة هى التى أذهلت الاعداء فارتبكوا ، لاسيما ان أخا موكالى

نفسه ورئيس حرسه كانا بين من سقطوا فى النهر بالعربات .

ثلاث ساعات من القتال الوحشى خاضتها فرقة آمون وحدها أمام جحافل الحيثيين ، فى معركة لايعرف الا الله الام كانت تنتهى او لم تلمع فجأة عند الافق أعلام فرقة بتاح . وبوصول الفرقة وجد الحيثيون أنفسهم محاصرين من كل الجهات . فبدأوا يرتدون ، ولم يأت الليل الا وقد انسحبوا الى ما وراء الاسوار المنيعة لمدينة قادش . ودموع غزيرة بللت وجهى فى تلك الليلة الكئيبة ، وسط الاف الجثث للرجال والخيول وأنين الجرحى يسمم سكون الليل . وناظرا الى الحال المزرية للجنود تنهدت توطئة لان أقول ارمسيس :

ـ أتكلم ، والا انكتم ؟

ففتح احدى عينيه المغمضتين من التعب ، وقال :

ـ اتكلم ...

فتكلمت ولاول مرة أخذ برأيى ، ورآنا الصباح ونحن نسلك طريق العودة الى بلادنا ، متنازلين ولو مؤقتا عن ذلك الحلم الخاص بفتح قادش . ولم ينس رمسيس أن يربط الى عربته ما تيسر من الاسرى ليكونوا حين نصل الى بلادنا برهانا على النصر العظيم .

ـ موش قلت لك يامولانا ان آمون ح ينصرك ؟

هكذا قال كاهن آمون ، فأجابه رمسيس :

ـ أيوه فعلا ، ضرورى ابنى له معبد ..

فرمقه الكاهن عاتبا :

ـ معبد واحد يامولاى ؟

فلم يجبه رمسيس اذ التفت الى قائلا :
ــ كتبت تقريرك ؟
ــ أيوه ياmولای ...

ونشرت ورقة البردي ورحت اتلو عليه وصفي للمعركة حتى وصلت الى الفقرة التي تقول :

ــ وقد كانت شجاعة جلالته هى التى أنقذت جيشه ، واستطاع بفرقة آمون وحدها أن ينتصر على ألف عربة من عربات الحيثيين وذلك بأنه ...

فقاطعنى رمسيس قائلا فى استياء :
ــ ألف عربة ؟.. انت بتخرف بتقول ايه ؟..
ــ امال كام ياmولاى ؟
ــ أنا عاددهم ألفين بالراحة !
ــ خليهم ألفين ...
ــ حتى يمكن اكتر ؟..
ــ نخليهم ألفين وخمسمائة ؟
ــ يادوب !

وتفكر لحظة ، ثم قال :

ــ وايه حكاية فرقة آمون دى ؟.. هى الفرقة عملت حاجة ؟ أنا اللى غلبت الحيثيين لوحدى.. انت ماكنتش معانا والا ايه ؟

وأصارحك القول بأننى اغتظت ..
ــ تحب جلالتك أكتب انك فتحت قادش كمان ؟..

فنظر لى نظرة نصحتنى بأن أنصرف من فورى لكى أعد التقرير كما يراه ..

وذلك التقرير نقشوه على عشرات المعابد التى راجوا

يشيدونها فى أنحاء البلاد ، من طيبة وأبى سمبل فى الجنوب الى تانيس فى الشمال ، العاصمة الجديدة التى رأى مولاى أن يقيمها فى الدلتا . ووسط ضجيج ضربات المعاول أتت الانباء بأن مدينة عسقلان قد تمردت فانطلق رمسيس بجيشه واحتلها ، ثم عرج على مدينة عكا فدمرها ..

وكنت مريضا وقتها ـ أو متمارضا لا أذكر ـ فلم يصحبنى معه فى تلك الحملة ، ولكننى سمعت مرة أخرى عن شجاعته الفذة التى جعلته يحارب ساعتين كاملتين بدون أن يلبس درعا واقيا . وكان من نتائج تلك الحملة أن أدرك الحيثيون عدم جدوى الحرب ، فوجدتنى ذات يوم أقلب لوحا من الفضة أرسلوه الينا متضمنا نصوص المعاهدة التى طلبوا أن يبرموها معنا حقنا الدماء الطرفين . وعلى سبيل التأكيد للمعاهدة أرسل ملك الحيثيين احدى بناته الى رمسيس ليتزوجها .. يمامة لطيفة رثيت لها حين تتقلب بين أحضان ذلك العريس الذى جاوز الخمسين . وقلت لنفسى ان هذا الزواج سوف يقصف عمره ، لكنه لم يفعل ، عاش مليكى العملاق حتى جاوز التسعين متمرغا بين سبع زوجات على رأسهن الملكة نفرتارى ، بخلاف عشرات المحظيات اللاتى تجلجل ضحكاتهن فى ردهات القصر بتانيس ...

ـ ما تعمل لنا كشف بيهم يا بنتاؤر ...

ـ هم ايه يامولاى ؟

ـ العيال .. موش الواحد يعرف عنده كام عيل ؟

فاحتجت الى أسبوع كامل لكى أحصر الاولاد واقدم له الكشف الذى ملأ بردية طولها ستة أقدام ونصف.

ــ بالتمام والكمال يامولانا ماية وحداشر ولد ، وسبعة وخمسين بنت !

فارتسمت على شفتيه ابتسامة غرور شديد وكان كاهن آمون حاضرا ، فقال :

ــ يتربوا فى عز مولاى وعز آمون ..
ثم تنحنح وقال كأنما تذكر شيئا :

ــ وعلى فكرة يا مولانا .. معبد الرامسيوم عايز يتوسع ، ومعبد الكرنك عايز يترمم ، ومعبد أبوسمبل عايز يتبيض !

وكان هذا كلاما أسمعه كل يوم فنفد صبرى :

ــ معابد ، معابد ، معابد ... الفلوس دى موش خسارة يامولاى ؟
ــ يعنى ايه ؟

ــ يعنى أحسن من كده تصرفها فى حاجه مفيدة ..
ــ زى ايه ..؟

ــ نشق ترعة .. نطهر مصرف .. نبنى بيوت للفلاحين .. نخفف الضرائب .. حاجه زى كده يعنى.

فتفكر فى الامر حينا توطئة لان يقول :
ــ طب انكتم انت !

وفى تلك اللحظة دخل علينا كبير النحاتين . .

ــ تمثال الرابسيوم يامولاى .. جلالتك عايزه كام متر؟
فأجابه رمسيس وهو يمط شفته السفلى :
ــ موش كتير ... عشرين متر كفاية ..

ـ ووزنه يامولاى ؟
ـ م ... م ... ما تزودوش على ألف طن !
ـ ألف بس يامولاى ؟
ـ أيوه .. أصلى ما احبش الاسراف !
ـ أمرك يامولاى ..

واستدار لينصرف فناداه رمسيس :
ـ وبالنسبة للودن والابهام اوعى تزود عن متر واحد :

وذات يوم طلب منى أن أعد له كشفا بعدد تماثيله فصرخت قائلا :

ـ أنا ف عرضك يامولاى .. دى عمليه عايزه شاب صغير علشان يقدر يكملها قبل ما يموت !

ثم رأى وقد تقدم به العمر أن يزور طيبة لاسترجاع شيء من ذكريات الشباب . وبين معابد الاجداد سرنا نتفسح ذات ليلة صافية ، كهلين فانيين يتوكأ الواحد منا على ذراع الآخر . وعند أحد المعابد توقف رمسيس ليقول لى بصوت مبحوح :

ـ شايف المعابد ؟.. مفيش حد زيى أبدا فى حكاية المعابد .

فتنحنحت وقلت :

ـ بس لامؤاخذه يامولاى .. المعبد ده موش بتاع جلالتك ...

ـ ازاى بقى ؟.. أنا ح اتوه عن المعابد بتاعتى ؟
ـ وآمون ماهو بتاعك يامولاى ..

ـ ياراجل ماتقولش الكلام ده .. روح شوف مكتوب عليه ايه وتعالى قول لى ... ليكونوا غلطو ؟

وكتبوا عليه اسم حد غيرى ..

فذهبت وقرأت المكتوب :

ــ مكتوب ان تحتمس هو اللى بانيه ..

فقال فى انتصار :

ــ جالك كلامى ؟ باقول لك دايما يغلطوا كده !

ولكزنى فى جنبى وقال :

ــ لكن برضه ملحوقة .. بكره الصبح أقول لهم يصلحوا غلطتهم !

وحدجنى بنظرة ماكرة واهتز صدره بضحكة مكتومة، ثم واصلنا تجوالنا بين المعابد لنفتش عن غلطات الاجداد . وكما ترى ــ ومهما كان نوع المتاعب التى صادفتنى ــ لايمكننى أن أنكر انها مسلية آخر تسلية ، حياتى الطويلة الممتعة مع بطل قادش ..

تنبيـــه!

الى هنا تنتهى سلسلة الدراســـــــات الفرعونية الضاحكة ، فاذا تصـــادف أن ضحكت فى الصفحات التالية فانتبـــه الى انك لا تضحك مع الفراعنـــة وانما تضحك مع بعض أحفادهم !

- ١ -

برميل على رأسي !

صـــــــورة قديمة لشخصي الضعيف عثرت عليها بالمصـــادفة ، وفيها رأيت على رأسي جسما اسطوانيا عاليا قبيح الشكل ، وفين وفين لما تبينت انه تلك البدعة القديمة المسماة بالطربوش . فابتســــــمت وتصعبت وهززت رأسي أســـفا عدة مرات .. ثم ما لبثت أن دهمتني حسرة اليمة ومرارة دامية !

لو أنهم كانوا قد ألبسوني هـــــذا الجردل الاحمر المقلوب على سبيل العقوبة لجريمة ارتكبتها لهان الامر، ولـكن أبدا . كل الناس كانت تلبس ذلك الطربوش ، من ملك البلاد الى عربجي الحنطور « لاحظ الفرق الذي كان كبيرا بينهما في ذلك الزمن البعيد » . أي ان الناس لا يلبسون الطرابيش على سبيل العقوبة أو على سبيل تعذيب النفس ، وانما يلبسونه بصفة لبــاس الرأس الوطني الذي يجب أن تفخر بحمـــــرته الفاقعة مثل القوطة ، مثلما تفخر « بزره » الاسود مثل الزفت !

وأنا أيضا كنت أحب طربوشي ، لا للدوافع الوطنية فحسب وانما لما كنت أعتقد من ان ذلك البرميل المقلوب أو قل — قصرية الزرع المقـلوبة — يزيد من منظـري جمالا — اذا كان شيء من ذلك ممكنا حقــا . فـكنت بين يوم وآخر آخذه الى الطرابيشي ليكويه ، يمتعني

منظره وقد لبس الاسطوانة النحاسية التى على مقاسه . ووضع الرجل كوبس الكهرباء فبدأ طربوشي يخبز كالرغيف فى الفرن .

تمر دقيقة وأخرى فابدأ فى القلق وأقول للرجل :

ــ والنبى حاسب الطربوش يتحرق !

ــ ما تخافش يابيه !

ولم أكن « بيه » ولا حاجة ، ولكنه يعرف انه سوف يتقاضى منى ثمنا لتلك الرتبة قرشا زائدا !

والطربوش بالطبع فى مكان أمين ــ أو قل حصن حصين ــ من دولابى ، لا اخرجه منه الا اذا كنت أعتزم تنظيفه لزوم الخروج . فأحضر فرشاة ناعمة أمشى بها على بشرته الحمراء ، وفرشاة أقل نعومة أمشى بها على زره الاسود ، دعك من المرة التى استخدمت فيها المشط اذ كان الزر معقدا نوعا . سلسلة من العمليات كان جديرا بها أن تجعلنى أسخسخ من الضحك على نفسى ، حمرة الورد أراها فى الطربوش البنى ، وفى زره أرى سواد عيون حبيبتى ، دعك من حكاية انه كما قالوا لى فى المدرسة جزء من اوازم الوطنية ، ناسيين ــ أو متناسين وهو الاغلب ــ أن يحددوا أى وطنيـــة يعنون : الوطنية المصرية أم الوطنية التركية ؟ « ملحوظة » : أعتقد انه فى الوقت الذى أخذت لى فيه هذه الصورة فى الثلاثينات كان كمال أتاتورك قد أطار الطرابيش عن رءوس الاتراك جميعا .

وبانتهائى من تجميل الطربوش أتجه الى المرآة لكى أجرى بعض التجارب التى توحى الى بأنسب الاوضاع

الطربوشية لزوم مشوار اليوم . أضعه أول الامر عموديا على رأسى ، فما تمضى دقيقة من التطلع الى نفسى حتى يخيل الى اننى أرى شاربا ضخما ينمو رويدا تحت أنفى لزوم ما يحدث تحت طربوش شيخ الخفر ! فأعوجه بسرعة جهة اليسار مع استخدام فرشاة الشعر لاصلاح ما أفسد منه الوضع العمودى ، ولكن هذا المنظر لا يعجبنى أيضا فأميل به ـ الطربوش المضحك ـ جهة اليمين متوخيا أن يصل الى حاجبى الذى لم يكن قد أصبح فى تلك الايام البعيدة حاجب السخرية الايمن .

عدة تجارب من هذا النوع حتى أقتنع بواحدة منها « ما تفهمش ازاى » واخرج الى الطريق غير ناس أن أسوى الزر بيدى على الدرجة الاخيرة من سلم العمارة .

وفى الطريق أسير سعيدا راضيا فخورا بنفسى وبآلاف القصارى الحمراء التى تتأرجح على سائر الرءوس حولى . شعب ـ أقول لنفسى ـ آخر وطنية وآخر حلاوة !

كان الامر محتاجا لثورة لكى يشعر الانسان المصرى بسخافة ذلك الشىء الذى يضعه فوق رأسه باسم الوطنية والقومية ، والذى لم ينجح فى أى وقت من الاوقات فى ان يقرب صاحبه من أى شىء سوى البلياتشو ! فالشكر للثورة على هذه اللفتة التى قد تبدو صغيرة وراء آلاف اللفتات والانجازات والانتصارات الكبيرة .

ومع ذلك هل كانت لفتة صغيرة حقا ؟ أشك فى ذلك

جدا . لقد كانت ضربة فى صميم العقائد الكسائية المزرية ، فلماذا نلبس لباس رأس هجره أصحابه الاتراك ؟ وهذا اللون الاحمر الفاقع ألا نخجل منه فوق رءوسنا فى تناقضه المضحك مع الزر الاسود ؟ وعلى العموم ما هذا اللباس الذى تكفى هبة ريح شديدة فى يوم شتوى فى ان تطيره عن رأسك وتلقى به فى الاوحال؟

والحكاية كما ترى ليست غير ذات مغزى . مغزاها واضح جدا وهو ان الانسان قد يعيش كذا سنة وهو يفعل شيئا « لبس الطربوش هنا » يظن انه معقول وواجب وآخر كمال ، ثم تأتى عليه لحظة ثورة تتكشف له فيها حقيقة الامر فسرعان ما ينتزع الطربوش من على رأسه ويلقى به على الارض توطئة لان يتقافز عليه — ليحطمه — عدة مرات ، مكتشفا كيف كان يكرهه طول الوقت ويزدريه ويكرهه وينتظر له على رأى المثل « لكة » !

كانت خدعة كبرى عشناها لسنوات طويلة غير شاعرين بما فيها من تقبيح لمنظرنا واهانة لكرامتنا البشركسائية . فالطربوش هنا يتحول من شيء ملموس الى شيء رمزى ، وليس بعيدا أن يكون فوق رأسى أو رأسك طربوش مجازى لا تراه العيون ولكنه يكبس على يافوخ صاحبه بكل ما كان يكبس به الطربوش الاصلى فيما سلف .

بأعلى صوتى أقول : يسقط الطربوش ، يسقط ، يسقط ! صحيح ان فئة الطرابيشية لابد أن تكون قد أضيرت بعض الشيء ، لكننى أعتقد انها لابد كانت قد

دبرت أميرها « لاحظ القرش الصاغ ثمن رتبة البكوية »
كما أظن ان حكومة الثورة قد عملت على تعويضها
بصورة ما .

وبالرغم من كل هذه الكراهية المتأصلة فى نفسى
للطربوش فهناك سؤال صغير لا يبرح يلح على بين حين
وآخر . أليس غريبا اننا الشعب الوحيد الذى نبذ
لباس رأسه ونسى أن يلتمس لها لباسا آخر ؟ !

- ٢ -

حكاية عشوة !

أحد أصدقائى يروى لى — والدموع تكاد تطفر من عينيه — كيف سولت له نفسه أن يستقبل العام الجديد بسهرة فاخرة تعوضه هو وزوجته عن كافة السهرات التى لم يسهراها طوال العام المنصرم . واختارا أحد الملاهى الراقية وكان ثمن التذكرة سبعة جنيهـــــان للفرد الواحد ولـكن خليها على الله . لاشـــك انهما فى مقابل ١٤ جنيها سوف يأكلان أكلة تملأ بطنيهما طول السنة ، أو على الاقل طول شهر يناير الذى سيقضيانه وهما لا يطيقان النظر الى جنس ضانى أو بتلو أو فراخ أو حمام أو حتى ديوك رومى .

فأخذ صديقى — لزوم توسيع البطن — شربة زيت وكربونات صودا ، وأخذت الزوجة سترات وبانتوزيم . وخلع هو الحزام مستبدلا به حمالة ، فى حين لبست هى الفستان بلا كورسيه مخافة أن يضغط على معدتها فتقوم وهى لم تأكل بعد الا بخمسة جنيهات .

— نبتدى العشا ؟

هكذا رن سؤال الجرسون فى اذن صـــــديقى وهو ينحنى أمامه بأدب ، فأجابه بقدر من الالاطة ينـــاسب الموقف :

— م م مافيش مانع !

وبدأ العشــاء ــ يحكى صديقى ــ بصحن فى حجم صحون الشاى يحتوى على أربعة أشياء صغيرة تشبه الجاتوه .

ــ جاتوه قبل العشا ؟ !

تساءلت زوجة صديقى فى دهشة :

ــ هس !.. ما تظهريش جهلك ! الاكل الهاى أصوله كده !..

وضرب الشوكة فى قطعة الجاتوه ودســها فى فمه لــكى يتبين انها ليست جاتوه ، والا فلماذا هى محشوة بالبسلة ؟ فهو نوع من الحرفنة المطبخية فى علاج الخضار المسلوق . فبينما هو يميل على زوجته هامسا لها برأيه فى الموضوع اذ امتدت يد الجرسون لتنزع الصحن من أمامه وهو لم يأكل ســوى القطعة الواحــدة . ذلك بالطبع لكى يضع بدلا منها صحنا آخر يحتوى على قشرة باذنجان مفرغة ومحشوة بما يوازى خمسة جرامات من السمك ، وصحن ثالث يحتوى على شوربة قرأ صديقى فى القائمة انها شوربة سلحفاة . لــكنه مال الى الاعتقاد ــ بعد التذوق ــ انها شوربة يوارنيوم !

فقال لزوجته :

ــ موش ممكن تكون شوربة زحالف ، معقول زحلفة ترضى تشرب الشوربة دى ؟

ولسبب ما لم يتعجل الجرسون رفع هــذا الصحن من أمام صديقى . فلما رفعه وضع بدلا منه صحنا فيه شىء تبين صديقى ــ بعد أن مسح نظارته ــ انه حتة لحمة ، تلك الحتة التى ما كاد يشرع فى مضغها حتى

قال لزوجته :

ـ تفتكرى عيب انده الجرسون يمضفها لى ؟ !

وقبل أن تجيب السيدة كان الجرسون قد رفع الصحن ليضع بدلا منه صحنا يحتوى على حتة نسيرة من الديك طولها بوصة وعرضها نصف بوصة ، لو ان الانسان أكل مثلها فى وجباته الخاصة لامكنه أن يحتفظ بالديك فى الثلاجة ستة أشهر . والنسيرة مثل حتة اللحم .. يقول صديقى : توحى بأنها منزوعة من الديك الذى استهل به عمر الخيام رباعياته الشهيرة !

ثم فوجىء صديقى بصحن من البرتقال والموز يوضع أمامه ، فهتف فى رعب :

ـ العشا خلص ؟ !

فضحكت زوجته وضربته على ظهره مداعبة :

ـ أما انت بقى ! دى زى الجاتوه يا عبيط !

ـ يعنى ايه ؟

ـ يعنى لازم شكله موز لكن محشى لحمة !

وقشرت الموزة وقضمت منها فبدت خيبة الامل على وجهها ! سألها :

ـ لقتيها ايه ؟

قالت بحسرة :

ـ لقيتها موزة !..

فأشار الى البرتقال قائلا :

ـ جربى دى !

فقشرت الزوجة البرتقالة وتعمقت فى تقشيرها ، وما من شىء يتكشف تحت القشور سوى فصوص

البرتقال . وبنظرة تفاهم طويلة صامتة قال الزوج :

ـ قومى نروح !

ـ ليه ؟ ..

ـ كده ..

ـ عاوز تنام ؟ ..

ـ لا ، عاوز اتعشى !

- ٣ -

عبقرية النوم

بعض النـاس لا تلزمهم طبيعة عملهم بالتواجـد فى العمل فى ساعة مبكرة من الصـــباح ، ومن ثم ففى وسعهم أن يناموا حتى التاسـعة أو العاشرة أو حتى الظهر اذا شاءوا . انى لاعرف أشخاصـا من هـذا النوع ـ أشـــخاص أذكياء وموهوبون وناجحون ـ يستغلون هذه الرخصة الى آخر حدودها ، من المستحيل أن تضرب تليفونا للواحد منهم قبل الظهر الا ويقال لك انه نائم ..

الموظفون العاديون والعمال يكونون قد أنهوا ساعتين أو أكثر من العمل وهؤلاء نائمون . التـــلاميذ قد انتظموا فى الحصة الثالثة وهم نائمون . قطار الصعيد قد وصل الى مشارف أسيوط وهم نائمون . النـاس قد شاهدت نصف الفيلم فى الحفلة الصـباحية وهم نائمون . آلاف الـكلاكسات تتشاتم فى ميدان التحرير وهم نائمون . نسـاء وضعن ورجال ماتوا فى العمـارات المجاورة وهم نائمون .

كواحد من أولئك الذين لا تربطهم بالعمل ساعة معينة كان يمكننى ان استغل هذه الرخصة بدورى الى آخر احتمالاتها ، لـكننى للأسف الشديد أعجز عجزا تاما عن استغلالها . هذه القدرة على النوم الطويل تحتاج

فيما يبدو الى نوع من الموهبة ــ وربما من العبقرية ــ لم أنجح فى التوصل اليه فى أى يوم من الايام ..

ما أن يتسلل من شيش النافذة أول شعاع من الضوء حتى تتفتح عيناى من نفسهما ، وشعور جارف بأننى يجب أن أستيقظ من فورى ، كتلميذ يخشى أن يصل الى المدرسة بعد الجرس أو مسافر يخشى أن يفوته القطار . أقول لنفسى اننى غير مرتبط بشيء من ذلك ولكن صوتا فى داخلى يقول لى فى صبر نافذ :

ــ بلاش دوشة .. ح تصحى يعنى ح تصحى !
ــ ليه بس ياسيدى ؟..
ــ اهه كده !
ــ طيب سيبنى أنام لى ساعة ..
ــ موش ممكن !
ــ طب نص ساعة ..
ــ مستحيل !
ــ موش بس تفهمنى ليه ؟
ــ انت موش عارف النهاردة ايه ؟
ــ ايه ؟..
ــ النهاردة التلات ..
ــ طب وايه يعنى ؟
ــ موش عارف عليك ايه يوم التلات ؟ !

وانا أعرف بعقلى الواعى انه ليس على أى شيء فى يوم الثلاثاء ولا الاربعاء ولا أى يوم آخر ــ على الاقل فى تلك الساعة المبكرة ــ ولكن ذلك الصوت الوغد يتوجه بالانذار الى عقلى الباطن نصف المخدر من أثر

النوم ، فيملؤه احساسا بأن ثمة خطرا رهيبا يتهددني في هذا اليوم اذا أنا لم أصح من فوري ، أو أن ثمة غلطة رهيبة في حياتي يجب أن أهب لمعالجتها قبل أن تستفحل وتخرب بيتي . وهـــــذا ما يسمونه بالانذار الكاذب الذي يصدقه القلب الساذج فيشتد وجيبه ، مع تلاحق في الانفاس وقد انخدع الحجاب الحاجز بدوره بهذا الخطر الوهمي . ولقد أتعمد تجاهل هذه الاصوات وارغم نفسي على معاودة النوم فأتعرض لحملة من الكوابيس الرهيبة المتوالية ، بين ثعبان فظيع يريد أن يقرصني ، أو أسد هارب من الحديقة يريد أن يأكلني ، أو مأمور ضرائب يريد مناقشتي !

لا فائدة اذن من المقاومة ، كتبت على اليقظة بالرغم من ان الساعة لم تتجاوز السادسة وجميع من في البيت نيام . كل الابواب مغلقة على النوم اللذيذ والاحلام السعيدة ، وأنا وحدي في البيت مثل عفاف راضي . أتنحنح وأسعل عسى أن أنبه أحد النائمين وما من أحد ينتبه ، أمامي ساعتان كاملتان على الاقل لا أنطق فيهما بكلمة : بم ..

لو انه في امكاني أن أحصل على جرائد الصباح لهان الامر ، ولكن الجرائد لا تصل الى حيث أقيم بالهرم الا بعد الثامنة . ومن ثم لا أجد أمامي سوى الراديو الذي أفتحه ـ بشويش لكي لا أقلق النائمين السعداء ـ على صوت مذيع يتلو على بعض عناوين الصحف ، وهو صوت يعزيني ـ بما فيه من دلالة ـ على ان هناك شخصا غيري قد صحا مبكرا . ولكن العناوين نفسها

لا تريحنى كثيرا ، بما تتضمنه فى معظم الاحيان من اخبار الدسائس والمذابح والانفجارات والقبضانات التى تحدث على سطح هذا الكوكب التعس .

ثم اغنية مليئة بالحماسة التى لا تطيقها النفس نصف اليقظى ، أو مليئة بالعواطف الجامحة التى تتنافى هى الاخرى مع مزاج الصباح ، أو أغنية عمرها ثلاثون عاما تملأ نفسى باحساس من الفشل التام فأتثاءب وأقفل الراديو . والساعة لم تتجاوز السابعة بعد ، وأبواب الحجرات ما زالت موصدة ، مثل نوافذ البيوت المجاورة التى أوشك أن أسمع غطيط النائمين السعداء وراءها .

***

ملل رهيب أحاول أحيانا أن أقطعه بالنداء على القطة ، أبسبس لها فتأتى مسرعة تقول : نو . تشب على مؤخرتيها وتمد لى رأسها وقد ظنت أن عندى شيئا يؤكل ، وباكتشافها اننى لا اطلب منها سوى المجالسة ترتسم فى عينيها الخضراوين خيبة أمل شديدة وتتراجع نحو الباب الذى دخلت منه . وقبل ان تخرج تلتفت نحوى وفى عينيها زغرة تقول لى :

ــ لما ما عندكش اكل .. متنيل صاحى بدرى ليه ؟

ومن شدة الملل يخطر لى فى بعض الاحيان أن ألبس هدومى واخرج ، ولكن الى اين اذهب ؟ هل اتجه الى دار الهلال واجلس على بابها حتى تفتح ؟ ! ولقد عملتها مرة وخرجت فوجدت ان المقاهى كلها لم تفتح بعد ، وليس ثمة فى ميدان الجيزة سوى العربات المحملة بالخضروات تفرغ شحناتها ــ هى والحمير التى تجرها !

والاف من الناس يطاردون الاوتوبيسات لكى لا يفوتهم موعد العمل ، وداخل الاونوبيسات قد انفعصت المئات من بنات المدارس اللواتى يجب ان يصلن فى الثامنة ، ذلك المنظر الذى لا يمكن ان يرتاح اليه رجل يركب سيارته الخاصة . فاشتريت ساندوتش طعمية وجلست اكاله على كورنيش النيل ، وبحثت عن زجاجة كازوزة ابلعه بها فتبين لى ان موزع الكازوزة ليس من الناس الذين يصحون بدرى .

***

محنة صباحية اعانيها يوما بعد يوم ، وسط غطيط العشرات من عباقرة النوم المعاشرة . فخطر لى يوما ان اسهر الى الفجر حتى اضمن نومة ثقيلة للتاسعة ولكن ابدا . ما ان تسلل الى الحجرة اول خيوط الضوء حتى رن فى أذنى ذلك الصوت الوغد يقول :

ــ انت عارف النهاردة ايه ؟ ! ودارت بيننا نفس المحاورة المزعجة التى انتهت بطيران نومى مثل كل يوم

فما رأيك انت فى هذه المشكلة المحيرة .. تنصحنى أجرب أبو النوم ؟ !

- ٤ -

الباب المفتوح ..

ليس غريبا ان يفاجأ الرجل بتلف يصيب اكرة باب سيارته ، وليس غريبا ان يفاجأ بتلف يصيب اكرتين . لكنه من الغريب جدا ان يفاجأ بتلف جميع الاكر فى وقت واحد . وكأن هناك ميكروبا معينا تفشى فى السيارة بشكل وبائى ، كميكروب الحصبة الذى ما يكاد يصيب طفلا حتى ينتقل الى كافة عيال الحارة .

من هذا الوباء تعانى سيارتى « فورد ٥١ ونبيتى كمان » فى هذه الايام ، لاسيما أكرة الباب الذى يقع عن يسارى مباشرة وأنا أسوق ، أرزعه بكل قوتى لكى يقفل فلا يقفل ، يظل ملخلخا يتراقص تحت ذراعى التى استند بها عليه . طول الوقت — وأنا سائق ... أفتحه وأرزعه بدون أن أظفر بأية نتيجة مثمرة ، وفى النهاية أيأس منه وأروض نفسى على احتمال رعشته وصوته المزعج ، أتركه يتلخلخ ويتخبط ماشاء له الخبط واللخلخة ، واليأس كما قيل قديما احدى الراحتين .

أنا يئست وارتحت لكن الناس للأسف لاييأسون ، ويرفضون أن يتركونى فى حالى لكى أستمتع براحتى ، اذ أكون سائقا فأسمع كلاكسا شديدا ورائى مع ان الطريق واسع يتسع لعشرين سيارة . فآخذ يمينى وأشير للسائق بأن يمر فلا يمر ، بل يهدىء من سرعته

حتى يحاذينى بسـيارته وهو يصرخ فى قائلا : بابك مفتوح ! فأرفع يدى الى جبينى بتحية الشكر المناسبة لهذا المنقذ الكريم ، مع ابتسامة امتنان عريضة ، توطئة لان أفتح الباب وأرزعه بقوة .. أنا أعرف بالطبع انه لا فائدة من ذلك ، لكننى أفعل ذلك لكى أريح منقذى .. لا شك انها تكون قسوة منى لو اننى سمعت نصيحته ثم امسكت عن اتباعها ، كأننى أقول له انت مالك أو شيئا من هذا القبيل .

طول ما انا ماشى أسمع تلك الصرخة التحقيرية ، بابك مفتوح ! فأرفع يدى بالتحية وأبتسم ، ثم أفتح الباب وأرزعه . بابك مفتوح ! فأرفع يدى بالتحية وأبتسم ، ثم أفتح الباب وأرزعه . هى بغير شك ظاهرة تدل على مدى العواطف النبيلة التى يحتفظ بها الانسان لاخيه الانسان ، ولكننى بصراحة بدأت أزهق ، من ناحية بدأت ذراعى توجعنى من كثرة الفتح والرزع ، ومن ناحية أخرى لماذا يفترض الناس اننى مسطول لا أشعر بأن بابى مفتوح ؟ فاذا افترضنا اننى لا أشعر فلماذا كل هذا القلق بسبب ان بابى مفتوح ؟ هو أولا ملخلخ فحسب وليس مفتوحا ، فما سبب ذلك التشاؤم الذى يؤكد للناس انه مفتوح ؟ وحتى لو سلمنا بأنه مفتوح ـ أو انه قد ينفتح فى أية لحظة ـ فايه يعنى ؟ كيف يتاح لى أن أسقط من السيارة وأنا قابض على الديركسيون بكلتا يدى ؟ هل من المعقول ـ بمجرد أن ينفتح الباب ـ أن ينخلع الديركسيون بدوره فأجد نفسى جالسا على قارعة الطريق وأنا أمسك دركسيونا بلا عربية ؟ !

ولقد وقع لى ـ بسبب هذه الحكاية ـ فصل مزعج جدا ، اذ مرت بى سيارة مليئة بالاناث فاذا بهن جميعا يبتسمن لى ويلوحن بالايدى الناعمة ، الامر الذى جعلنى أرفع يدى الى الكرافتة لكى أعدلها ثم الى شعرى لكى أسويه ، متوهما اننى قد فتنتهن بجمالى أو انهن قد قرأن التفاحة والجمجمة ولذلك يبتسمن من فضلهن . ثم اتضح لى انه لا هذا ولا ذاك ، عندما اقتربت سيارتهن منى انبعث صوت حريمى يقول لى :

ـ بابك مفتوح !

لم يكن يخطر لى قط ان بابى مهم الى هذه الدرجة ، وان حياتى غالية على سكان الجمهورية بهذه الصورة السارة والمزعجة فى الوقت نفسه .

لذلك أجد نفسى فى حاجة الى مشورة عاجلة بصدد اللوحة التى أنتوى تعليقها على باب سيارتى ، لوحة صغيرة عندى فكرة عامة عن مضمونها لكننى أريد أن آخذ رأيك فى الكلمات التى أعبر بها عن هذا المضمون . فاليك عددا من الصيغ التى أرجو أن تساعدنى فى اختيار واحدة منها :

١ ـ بابى مفتوح وأنا أعرف ذلك فشكرا .

٢ـ بابى مفتوح وجارى تصليحه باذن الله .

٣ ـ بابى مفتوح لكننى أمسك الدركسيون فلا تخف

٤ ـ بابى مفتوح ، ايه حشرك انت يا بارد ؟

تلك بعض الصيغ التى خطرت لى ، ولا مانع من أن تقترح على غيرها اذا خطر لك شيء ، وأرجو الا أسمعك تنصحنى باصلاح الباب ، فأنا لا أميل الى هذا اللون من الاغراب فى التفكير .

- ٥ -

أحلام مراهقة

من بلكونة الفندق حيث جلست وجدتنى أرقبه حيث يجلس فى بلكونته الخاصة غير بعيد ولا قريب منى ، المراهق المصرى الذى أرجو أن يكون قد نجح فى الثانوية العامة بمجموع مناسب لدخول الجامعة . أسمر الوجه رقيق القسمات حالم النظرات ، سرح ببصره فى البحر الازرق العريض وراح يحلم .

بالمستقبل يحلم بالطبع ، وباليوم الذى يحصل فيه على تلك الورقة السحرية المسماة بالليسانس ، ومانشيت فى الصحف عن تعيين جميع الخريجين هذا العام وهو منهم . الدرجة السادسة الفنية ياحبيبى ، واسرح معه بخيالك فى كل تلك الاشياء الجميلة التى يستطيع الانسان أن يفعلها بخمسة عشر جنيها فى الشهر . السينما مرتان فى الاسبوع بدلا من مرة كل أسبوعين ، والجلوس فى البلكون بدلا من الصالة ، وشرب زجاجة الكازوزة على مقعد السينما بدلا من الخروج لشربها على رصيف الشارع . فاذا أتى وقت الكساء فحذاء من الجلد بدلا من حذاء من المشمع ، وبنطلون ترجال بدلا من البنطلون الفانلة . أى والله يا أخى ، ما أكثر ما يمكن للانسان أن يفعله بخمسةعشر جنيها فى الشهر .

وعلى رصيف الشارع تحت بلكونة الفتى الحالم مرت فتاة حلوة ، حمالات المايوه تكشف عن كتفيها وبعض صدرها ، والنصف الاسفل ملفوف فى بنطلون احمر ضيق ، وهواء البحر يطير على جبينها الوضاء خصلات من الشعر الحرير . متهادية سعيدة بنفسها لفتت نظر الفتى كما لفتت نظرى ، فتركز بصره عليها ونهض من جلسته ليطل عليها ، متابعا اياها وهى تبتعد مولية اياه خلفية لا تقل جمالا عن أماميتها ، ولعن الله ذلك اللورى الضخم الذى حجبها عن الانظار .

فارتد الفتى الى حال الجلوس وواصل الحملقة الى البحر ، واضعا يده على خده فى نوع من الحسرة التى ربما بررتها ظروف المراهقة . فأحلامه فى هذه اللحظة قد اتخذت مجرى مختلفا بعض الشيء عن الليسانس والدرجة السادسة ، وما أحسبها الا وقد تركزت حول الامكانيات الرائعة التى تكمن فى ثنايا الكيان الجميل الذى فات ، تلك الامكانيات التى أرى — لاعتبارات قانونية بحتة — أن أتركها لخيالك الخاص .

غير انه هنا — يقول الفتى الحالم لنفسه — تبدو أهمية الدرجة السادسة مرة أخرى ، فأى شيء أسهل من أن يعود الى الجلوس فى الصالة بدلا من البلكون ويتزوج ؟.. لانه لاشك سوف يلتقى ذات يوم ببنت حلوة مثل هذه البنت ، ولسوف يشتعل الحب بينهما حتى من قبل أن يتم ربطه على السادسة .

— تحبينى يا مرفت ؟

— قوى يا فريد ..

ـ انت الامل اللى طول عمرى عايش بيه ..
ـ وانت الحلم اللى طول عمرى باستناه ..

« معذرة عن مستوى الحوار ولكن شيئا فى منظر ذلك الفتى يوحى الى بأنه يكثر من الفرجة على الافلام العربى » .

ـ مرفت ..
ـ ايه يا فريد ؟
ـ ترضى تتجوزينى ؟
ـ ياسلام يا فريد ، ده يبقى يوم منايا ...
ـ حبيبتى مرفت ..
ـ روحى فريد ..

كلوز أب على حضن وحشي وقبلة ملتهبة تنتظر مقص السيدة اعتدال ممتاز ، ثم قطع على الدفوف وهى تقرع بأيدى العوالم فى ليلة الزفاف . وما دمنا قد وصلنا الى ليلة الزفاف فمرة أخرى أحيل الامر ولنفس الاسباب الى خيالك الخاص .

نعم يكفيهما ويفيض ذلك المبلغ ، من الذى يحتاج مع القطة مرفت الى أكثر من خمسة عشر جنيها ؟ انها لن ترفض بالطبع « وقد حققت أمل عمرها بالزواج منه » ان تقيم فى شقة حجرة واحدة ، بحاجه كده زى خمسة ستة جنيه . فعندما يوجد الحب الحقيقى تتضاءل أهمية المكان الذى يمارسه فيه الحبيبان ، وخير دليل على ذلك قول شادية لحبيبها انها تريد أن تحب فى أى مكان ، صحراء كان أو بستانا ، وذلك بالرغم من رمال الصحراء التى سوف تتسرب الى فستانها

او من حشائش البستان التى سوف تشوكها . صحيح ان هناك بعض الشائعات عن خلاف دب بين شادية وزوجها ولكن هذا لا يغير من الامر شيئا ، فهو واثق بأن مرفت تختلف عن شادية كما انه هو يختلف عن صلاح ذو الفقار ، وأغلب الظن ان هذا الخلاف ما دب الا لان صلاح ليس فى الدرجة السادسة .

اما من الناحية الغذائية فقد ثبت من زمان ان الطعام هو آخر ما يفكر فيه الحبيبان المخلصان . نعم هما يحتاجان الى ما يقيم أودهما ولكن هذا لا يهدف الا لشيء واحد الا يعجزا من فرط الجوع عن ممارسة الحب . ومن ثم فهما يأكلان أى شيء يتاح لهما حتى ولو كان صحن فول مدمس ، وليس يشك — الفتى الحالم — فى ان شفتى مرفت ستكونان آخر متعة وهما غارقتان بالزيت والليمون ، حتى ولو كانت قد أكلت مع الفول بصلة ، عمر البصل ما كان يتعارض مع الحب الصادق .

فمع هذا الحب لا تدقق الانثى بشدة فى أنواع الطعام ، وعندك صباح التى رضيت بأن تعيش على البطاطة ما دامت تعيش مع الرجل الذى أحبته ، شأنها شأن المطربة الاخرى التى تقول لحبيبها أعيش معاك واكلها بدقة !

ولا شك ان مرفت سوف تكون فى منتهى السعادة وهى تأكل البطاطة بصحبته ، لاسيما اذا قشر لها البطاطاية وأطعمها اياها بيده . كلا، ليست مرفت التى تفكر فى الاكل وهى معه . حسبها اذا جاعت أن يقبلها

فتشبع ، أو يحتضنها حتى تتجشأ من فرط التخمة .

وبالنسبة لبنود الصرف الاخرى لا يظن فتانا ان فاتورة الكهرباء سوف تكون بندا فى ميزانيته ، فمن الحمار الذى يضىء النور وهو مع الامورة مرفت ؟ !

اليس هناك قمر يملأ الكون بنوره الشاعرى ؟ وما أبغض مصابيح الكهرباء العادية عند مقارنتها بشمعدان شاعرى

لطيف يلقى على جدران الحجرة خيالات راقصة لهما وهما يتبادلان القبلات ويأكلان حبات الترمس .

وكذلك الحال بالنسبة لبند الملابس الذى لا يظن فتانا انها ستمثل عنصرا هاما فى حياتهما . ما فائدة

الملابس بالنسبة لعاشقين سعيدين ينامان ويقومان — كما تقول شادية — ويقومان وينامان على حب جديد .

ولا شك ان الملابس ستكون عائقا دون تحقيق ما دعا اليه عبد الحليم حافظ من حالة الحب التى يختلط

فيها الامر على المحبين فلا يعرف الواحد منهما دقة قلبه من دقة قلب الآخر .

***

وانثى جديدة مرت تترجرج تحت بلكونة الفنى فنهض كما نهض من قبل ، وتابعها حتى اختفت

كسابقتها . ثم جلس الفتى حينا ثم وقف ، ثم وقف متململا وقد تجسد له فيما يبدو بعد المسافة بينه وبين

الدرجة السادسة وما تبشر به من أحلام . فوقف من جديد ودخل الى حجرته وأغلق زجاج الحجرة بالرغم من ان الدنيا حر . ولعل هذا هو السبب فى انه تردد

وراء الزجاج المغلق لحظة ثم فتحه وأغلق الشيش .
وذكرنى ذات يوم أن أكتب قصة أو بحثا عن حياة المراهق المصرى وان كان من الصعب أن تستخرج من وسط تلك الاحلام المحمومة حينا والحزينة حينا آخر قصة فكاهية .

- ٦ -

شقاوة عيال

هم كائنات سافلة منحطة متأخرة ـ العيال طبعا ـ الا انهم فى بعض الاحيان يشكلون عنصرا لا بأس به من عناصر التسلية .. من ذلك ما شهدته منذ أيام فى بيت أحـد أقاربى ، اذ وقف على سـجادة الصـلاة يصلى فدخلت طفلته الصغيرة ووقفت ترقب المشهد فى صمت واهتمام . ولـكن صمت الاطفال كما تعلم لا يطول ، وسرعان ما اقتربت البنت من قريبى المصلى وقالت له مستفسرة :

ـ بابا .. انت بتصلى ؟ !

ولانه كان يصلى فلم يجبها طبعا ، مكتفيا بزغرة صغيرة منذرة بجانب عينه وهو يواصل التمتمة ، تلك الزغرة التى لم يبد ان البنت فهمت معناها ، والتى لم يكن لها من نتيجة سوى اشعال المزيد من الفضول فى نفسها البريئة . فاقتربت منه حيث وقف على السجادة وبدأت تشده من طرف جاكتة البيجامة :

ـ بابا .. بابا .. انت بتصلى يا بابا ؟ !

فرفع الرجل صوته بالتلاوة لـكى تفهم البلهاء انه يصلى ولـكنها لم تفهم ، أو فهمت ولـكنها ـ كواحدة من هذا الجيل المتشكك ـ لا تقنع بغير الجواب القاطع الصريح . وكانت فرصتها فى التمكن منه عندما جلس

يقرأ التحيات ، اذ صار فى نفس ارتفاعها فوضعت فمها على أذنه وعادت تقول :

ـ انت بتصلى يا بابا ؟

ولاصراره على عدم الاجابة تأكدت البنت انه قد أصيب بطرش مفاجىء فبدأت تصرخ بأعلى صوتها فى أذنه :

ـ بابا ! بابا ! انت بتصلى يا بابا ؟ !

وكانت الدماء لا تبرح تتجمع بكميات ملحوظة فى وجه الرجل الصابر ، الذى يتصاعد غيظه شيئا فشيئا بالاضافة الى الآلام السمعية التى سببها له صراخ البنت فى أذنه . وانتهى أخيرا من الصلاة فصرخ بصوت أعلى من صوتها :

ـ امال باعمل ايه يابنت ال .. ؟ ! بالعب بارقص ؟ واحد واقف يصلى يبقى بيعمل ايه يا حمارة يا غبية يا قليلة الادب !

***

ثم التفت نحوى وفى عينه زغرة خاصة بى انا وقال :

ـ وسيادتك قاعد تتفرج ؟ موش تحوشها عني وتفهمها انى باصلى ؟

فتفكرت فى الامر توطئة لان أقول :

ـ والله خطر لى أحوشها عنك وغيرت فكرى .. موش يمكن لك عادة تعمل نفسك بتصلى وتكون ما بتصليش ؟

ولكنه لم يبد من أمره انه اقتنع ، فأنت تعرف أن بعض الناس لا يقتنعون بسهولة .

- ٧ -

العقل ضد الهرمونات

لاشك انه منظر جميل ، منظر أسراب الطالبات وهن واقفات على محطات الترام والتروللى ، محتضنـــات حقائبهن الى صدورهن بذلك الشكل الرمزى الفاتن . وكذلك الجمال مع منظـرهن حيث تكدســن فى عربات المدارس ، خصوصـــا عندما يبتسمن لى من نافذة السيارة الخلفية وأنا وراءهن فى الفورد ٥١ نيتى ..

هو منظر جميل يفتننى ، مثلما يفتننى منظر أسراب العاملات ، صناعيات كن أم تجاريات ، شأنه شأن منظر البنات الفلاحات وهن يجمعن القطن أو ينقين الدودة . منظر يفتننى وان كان فى الوقت نفسه ـ صدق أو لا تصدق ـ يفزعنى أكثر .

نعم يفزعنى ، عندما اتخيــل ملايين الاجنــة التى ستتحول يوما الى عيال تقول واء ، توطئة لان تقول مم ، وتنزل على خيرات البلد كما ينزل سرب من الجراد فى حقل ذرة ..

ملايين هنا تتحول الى بلايين وبلايين عبر خمس قارات مؤسسة أنثوية رهيبة لتفريخ الاجنــة وتوريد الجراد والذنب بالطبع ليس ذنب البويضة ، فالبويضة لاتستطيع ان تكون الا بويضة ، ولا يمكن أن يكون لها هدف فى الحياة سوى أن تتحول الى جنين . والذنب ليس ذنب

الانثى أيضا ، فهى الاخرى لا يسعها أن تكون الا أنثى .

انما الذنب هو ذنب الحكومات التى تدير شئون الدول فى مختلف القارات ، اذ تتناول بالتنظيم كافة مجالات النشاط البشرى ثم تحجم عن التدخل بالتنظيم فى هذا المجال بالذات مع انه فى نظرى اخطر المجالات كلها .

نعم هو أخطر المجالات ، فمن أين نشأت متاعب الناس الا من كونهم أكثر من اللازم ! الحروب تقوم لان الناس أكثر من الطعام ، والمجاعات تحدث لنفس السبب ، والاوبئة تتفشى لأن الناس أكثر من الرعاية الصحية .

لو كان عددنا قليلا لما كان هناك حرب ولا جوع ولا فقر ولا مرض . فالذى يريد اليوم أن يسدى أجل خدمة الى البشرية هو الذى يخليها نائمة ويخنق نصف أفرادها ! وبما ان هذه خطة متعذرة نوعا لكثير من الاعتبارات ، فلا يبقى أمام الانسان الا أن يصنع أضعف الايمان بأن يحاول انقاذ الاجيال القادمة من الورطة التى وجد نفسه فيها بسبب انقياده لغباء تلك الكائنات الجهنمية المسماة بالبويضات .

ان العقل هو الاداة التى ركبت فينا لكى نرتب أمورنا ، فلماذا نستخدمه فى ترتيب كل أمورنا ما عدا مسألة تكاثرنا ؟

أنا شخصيا انسان عاقل ، ولذلك أنجبت ثلاثة أولاد فقط ، ولو شنقونى لما أنجبت الرابع . فلو اننى كنت أعقل لاكتفيت باثنين ، ولو كنت أعقل لاكتفيت بواحد ، وربما كنت أعقل لو لم أنجب أى طفل ، وأين هو

العقل الذى كان له أن يمنعنى من الزواج أصلا ؟

وهناك كثيرون من العقلاء مثلى ، ولكنهم بالقياس الى الاغلبية الساحقة قلة لا يعتد بها . الاغلبية من الازواج لا وظيفة لهم سوى تلبية أوامر البويضات والتفرغ لخدمتها .. هورمون ينبعث من المبيض ويسرى فى دمائها الى رأسها حيث تتراءى فى عينيها نظرة دلع ، فسرعان ما يضرب الزوج تعظيم سلام ! كالجردل يطب فى الشرك الذى رسمه له هورمون سخيف لا يسوى ثلاثة ابيض !

بلايين الجرادل فى خمس قارات ، وبلايين نظرات الدلع التى تتحول الى بلايين الاطفال الذين يقولون واء نوطئة لان يقولوا مم ، والنتيجة انه مهما تقدم العلم فسوف تظل المشكلة قائمة ، ولن تزال هناك حروب ومجاعات وفقر ومرض . مهما استصلحنا من الصحارى ومهما صنعنا المزارع ، ومهما أقمنا من سدود وجسور ومحطات كهرباء ، فلن تبرح سرعة أثر الهرمونات أكبر من سرعتنا ان لم نتدخل فى الامر بعمل حازم .

لكن الحكومات لا تتدخل بأى عمل حازم ، كل ما تصنعه هو أن تقول لهم : يا جماعة موش كده ، على مهلكم شوية ! لكن تقول لمين ! كيف تفهم جردلا أن نظرة دلع فى عين أنثى لا تستحق أن تجعله يظلم البشرية بجرادة زائدة !

ان هذا يرجع فى الغالب الى سوء فهم للحرية الشخصية . ما دام الرجل قد كتب مع أنثاه كونتراتو فهو حر فيما يصنع ما دام باب الحجرة مغلقا ! قبلة

عابرة فى الطريق بين شـــــاب وفتاة قد تقودهما الى التخشيبة ، أما ضجعة فى حجرة الزوجية تؤدى الى الطفل العاشر فهذا شيء يدخل فى نطاق الحرية الشخصية! كأن وثيقة الزواج هى فى الوقت نفسه ترخيص للزوج بتدمير اقتصاديات البلد !

حقا ان هناك محاولات للتوعية هنا وهناك ، لـكن توعى مين ؟ المسألة محتاجة الى شيء أهم من التوعية ، محتاجة الى ذلك السيف المسمى بالقانون . وهو يجب أن يكون قانونا دوليا لا محليا ، قانونا عالميا ينص عليه فى وثيقة حقوق الانسان . من حق الانسان أن يتعاون على مستوى دولى فى حماية نفسه من كيد الهورمونات!

وحيث اننى أحمل ليسانس الحقوق فأعتقد انه يجب ان أضم الى اللجنة التى تضع ذلك القانون . فاذا لم يتيسر ذلك ، بسبب المؤامرات الامريكية فى أروقة الامم المتحدة ، فحسبى أن أقدم لهم فكرة سريعة عن الصورة التى يجب أن يصاغ فيها ذلك القانون .

***

هو قانون مختصر يتكون من المواد التالية :

مادة ١ :

لا يجوز لاى انسان فى أية دولة أن يتزوج قبل سن الثلاثين ، واذا كان أربعين يبقى أحسن !

مادة ٢ :

كل من يضبط متلبسا بطفل رابع ، أو بطفل أصغر من أخيه بأقل من خمس سنوات يعاقب بالحبس ستة

أشهر مع الشغل .

مادة ٣ :

اذا تكررت الجريمة من الزوج أكثر من مرتين جاز للمحكمة أن تخيره بين أحد أمرين : تعقيم زوجتـــه أو تطليقها فورا ، مع منعه من الزواج مرة أخرى .

مادة ٤ :

كل من يعاون فى اخفاء طفل رابع فى محل سكنه أو غيره يعاقب بنفس العقوبة المنصوص عليهـــا فى المـــادة الخامسة .

***

هـــذا مشروع موجز لذلك القانون المقترح ، الذى أعتقد انه قد حان الوقت لتطبيقه فى عصر العلم الذى نعيش فيه . أما ان نطلق العنان لنزوات الهورمونات والبويضات ونظرات الدلع والحقـــائب المحتضنـــة الى الصدور فمعنى هذا ان لسه بدرى علينا ، وانه ما زال أمامنا آلاف السنين قبل أن تصـــدق علينا صـــفة ان الانسان حيوان عاقل !

- ٨ -

مرثية للصيف الراحل

فصلى الحبيب يجود بأنفاسه الاخيرة ، فصل الصيف الدافىء اللذيذ .

ليس بعد اليوم من جلسة شاعرية حلوة فى ضوء القمر ، فالقمر من الآن مجرد قرص معدنى ساقع يتخيل المرء وجوده وراء أكداس السحب .

والقميص اللطيف أبو نصف كم راحت عليه . بدلا منه القميص والكرافتة الخانقة ، وتحتهما الفانلة الصوف التى تسبب للمرء احساسا دائما بالارتكاريا . ولربما أضيف اليها زيادة فى الاستدفاء بلوفر قديم ، منظر مضحك حقا ولكنك تعلم ان المرء قلما يخلع ثيابه فى الشتاء .

فاذا سرت فى سوق الفاكهة فكأنما أنا أسير فى الصين ، بسبب ذلك اللون الاصفر الفاقع فى أقفاص البرتقال واليوسفى . راحت أيام ذلك الكرنفال اللونى الجميل فى موسم الصيف ، العنب الفزدقى فى تناغمه الجميل مع الزغلول الاحمر أو الرطب الاسود ، على خلفية خضراء صارخة من البطيخ والمانجة ، والمشمش الضاحك والبرقوق الذى بلون الدم ، واللمسة البنية الوقورة فى التين والامهات .

ذهب الصيف ولا بامية بعد اليوم لا بامية للأسف

ولا ملوخية خضراء . الاولى ستختفى من عند الخضرى لكى تظهر محنطة عند البقال ، والثانية يبيعونها فى هيئة مسحوق كأنه شاى ، ولعلهم يخلطونها لى بالشاى وأنا لا أعلم .

ولا تقل لى اننى فى التماسى للخضرة أستطيع أن آكل خبيزة ، فالخبيزة فى نظرى تقليد فاشل جدا للملوخية ، الى جانب انها تذكرنى بمكان لا أرتاح له فى طنطا .

— طابخين ايه النهارده ؟

— بسلة ..

والبسلة اما مسلوقة لا طعم لهـا ولا رائحة ، واما بالصلصة وكيلو الطماطم بنصف ريال .

— طابخين ايه ؟

— كرنب ..

والكرنب وان كان من أجمل المناظر فى الحقل فهو من أسوأ الروائح على المائدة ، ومعذرة عن هذه التكريعة الاضطرارية .

— لونك بكام ياعم ؟

— بساغ الواحدة ..

— ما ينفعش الاتنين بتلاتة تعريفه ؟

— يفتح الله ..

فاذا كنت تحب الليمون مثلى ، فها هو الليمون قد صار — بعد الطماطم — بندا جديدا فى الميزانية . وعلى العموم ما فائدة الليمون اذا كنت تعصره فلا تجد تحته بامية ؟

وفى الشارع يرتفع صوت غليظ يقول جاز ! جاز !

بدلا من أصوات الصيف الرخيمة التى تترنم بعظمة المانجة أوتفول بطاطة ياللى تشوى! فيشترون الجاز لان انبوبة البوتاجاز قد فرغت ، وتليفون موزع البوتاجار مشغول طوال الشتاء .

***

وراء زجاج النافذة المغلق أقف لارقب الاشجار المرتعدة فى الخارج ، متمايلة وسط الرياح العاتية كعمالقة مقيدة تضرب بالسياط . والسحب الكبيرة البيضاء والسوداء تركض فى الفضاء الرحب ــ كما قال الشاعر ــ ركض الخائفين . منظر يملأ نفس المرء كآبة وغما ، خصوصا اذا كان هذا المرء سيتفدى بسلة ..

أستطيع بالطبع أن أشعل المدفأة الكهربائية لزوم الاستدفاء ، ولكننى ما أن أنظر اليها حتى أتخيل عداد الكهرباء وهو يجرى كالمجنون ليخرب بيتى . طول الوقت يخيل الى اننى والعياذ بالله راكب تاكسى .

ومنظر الطريق هو الآخر يسم البدن ، بعد أن غابت الاذرع العارية السمراء عن الانظار، وفى جوف البنطلونات غاصت السيقان الرشيقة البيضاء . ورب معطف ثقيل يخفى ما تبقى من آثار التفاصيل ، فتتحول المرأة من أنثى حية الى فكرة مجردة .

شهور طويلة تنقضى دون أن ترى عينى من المرأة « فى الطريق طبعا » سوى يديها ورأسها وما الى ذلك من أعضائها الثانوية .

وداعا للصيف ..

وداعا للدفء والتحرر والجمال ..

وداعا للبامية والعنب والعشر ليمونات بقرش !

- ٩ -

طقطوقه !

السماء وراء النافذة المفتوحة مربع أزرق ، كالسهم سرى عبره طائر قد يكون عصفورا كبيرا وقد يكون حمامة صغيرة .

هي لم تر الطائر وان كانت مثله تنظر الى النافذة ، أسندت رأسها منذ حين الى الخلف وسرحت ببصرها فى السماء ، على شفتيها شبح ابتسامة راضية .

لان سيد درويش كان يقول : آه انا عشقت ، من نفير كبير بنى اللون يعلو الفونوغراف ، واسطوانة تدور تحت الابرة وتدور . هى ادارت الاسطوانة بنفسها ، بعد أن ملأت الفونوغراف عن طريق اليد التى فى جانبه ، والانسان على فكرة يجب أن يدير تلك اليد برفق والى حد محدود ، لانه ان أدارها أكثر أو أعنف أدى ذلك الى انكسار الزمبلك ..

سيد درويش قد شغلها عن الصينية التى فوق حجرها ، وفى الصينية أرز تنقيه ، فى ناحية من الصينية تركن الرز الاسود التالف ، بعيدا عن الرز الابيض الجيد فى الناحية الاخرى ، ترى هل ستصنعه رزا عاديا أبيض . أو رزا أحمر نثرت عليه فتافيت الكبد والكلاوى ؟

والآن تصعبت وهزت رأسها ، ثم انحنت على الصينية لتواصل عملها . شعرها الطويل تهدل على الصينية ،

شعر أسود بلون الليل ، وبلون الاسطوانة التى تدور وتدور ، وهو ناعم أيضا ، طالما تخلله بأصابعه فوجد له ملمس الحرير .

والآن رفعت يدها فردته الى الوراء ، أزاحته من خدها الابيض مثل الرز الذى تنقيه ، الرز الجيد الذى تركته جهة اليسار ، فماذا لو انه نهض وقصد اليها ، وطبع قبلة على الخد الابيض الجميل ؟ لـكنها لن تكون قبلة فى محلها ولا فى وقتها ، ما بين الرز وسيد درويش

وشفت غيرى كتير عشق. بصوت مبطن من الداخل بالقطيفة ، أو بالجوخ الذى توجد قطعة مستديرة منه تحت الاسطوانة الدائرة ، ترى لمـاذا يعلو جانب من الاسطوانة وهى تدور ثم ينخفض ، توطئة لان يعلو من جديد ؟

عمرى ما شـفت المر الا فى هواك ، فهزت رأسـها ثانيا وتصعبت .. ولما هزت رأسها تهدل شعرها على الصينية كما كان من قبل ، تركته هـذه المرة متهدلا هناك ، مشغولة بالاغنية عن كل شيء ، وشـعر سيـد

درويش فى كل صورة رآها له كان منكوشا دائما ، الفن فيما يبدو يتنافى مع تسريح الشعور ، وهو يحفظ هذا اللحن جيدا فلماذا لا يصـاحبه من عنـده بشيء من الدندنة ؟ فما كاد يفعل حتى أتاه صوتها :

ــ شش !

غير مستعدة لان تسمع مع صوت الشيخ صوتا آخر حتى لو كان صـوته . فسكت وخجل من نفسـه ، ولانها جعلته يخجل من نفسه أحس انه يكرهها ، ولانه كرهها خجل من نفسه أكثر .

ــ عاوزه أبيض والا أحمر ؟

فأحس انه يحبها من جديد ، أدركت انها اغضبته والآن تريد أن تصالحه ، فرجته لكى يطلبه أحمر وبالكبد والكلاوى . لكنه لا يصح ان يكون سهل المصالحة بهذه الصورة . فقال لها : زى بعضه وهو يهز كتفه فى غير احتفال ، هزة لم ترها حيث عكفت بوجهها على الرز :

ـ انت موش بتحب الرز الاحمر ؟

هم ، وبالكبد والكلاوى ، وطائر جديد مر من عبر المربع الازرق ، كلا هو ليس حمامة بل عصفورا ، والاسطوانة قد انتهت وأخذت تدور على الفاضي .

ـ والنبى تدورها م الاول تانى .

فنهض متثاقلا ونقل الابرة الى بداية الاسطوانة ، على المساحة السوداء اللامعة بغير خطوط ، ومرة قال ان شفته تاكله ويريد أن يسلم بها على خد حبيبته .

وكذلك هو يريد أن يسلم على خدها ، أليست صالحته ووعدته بصحن من الرز الاحمر ؟ بيده سوف يزيح شعرها الاسود المتهدل ، وعلى خدها الابيض سوف يطبع القبلة فتبتسم له فى امتنان .

وكانت بينه وبينها ترابيزة صغيرة ، قدمه ارتطمت بساقها فاختل توازنه وكاد يسقط . ولكيلا يسقط مد يده لكى يستند على شيء ما ، وكان ذلك الشيء بالمصادفة هو صينية الرز .

الصينية مالت تحت ثقله ، والرز الاسود الذى كان فى الناحية اليمنى زحف الى الناحية الاخرى واختلط بالرز الابيض ، فشهقت وأجفلت واشتعلت فى عينيها الغاضبتين نظرة حمراء ، عمرى ما شفت المر الا فى هواك .. آه . اها ها ها ها !

- ١٠ -

صورة امرأة

لا أدرى على وجه التحديد ماذا جذبنى اليها حيث وقفت على محطة الاوتوبيس تنتظر ، وربما كانت تلك النظرة الوديعة الصابرة فى وجهها الشاحب ، الجامع بين مسحة حزن ولمسة انيميا . ناظرة الى الامام على الدوام نحو أوتوبيسها المنشود ، لا أظن انها رأتنى أصلا حيث وقفت وراءها . وايشارب رخيص يغطى رأسها ، وما برز من شعرها يؤكد ان الكوافير ليس من المحال التى تتردد عليها . نعم ربما تكون قد زارته مرة يوم زفافها ، ولكن ليس بعد ذلك قطعا !

ولا بد انه قد تم من حوالى خمس سنوات ، ذلك الزفاف .. استنادا الى عمرها وعمر الولد الصغير الذى يقف بجانبها ، شاحب الوجه مثلها وفى عينه نظرة خاملة ، شأنه شأن أخته الاصغر منه ، وهو ما يوحى بأن مدمسا بقرش لم يعد يكفى لافطار العيال . ورفعت الطفلة يدا صغيرة كبشت بها ذيل فستان أمها فأسرعت هذه ينزعها عنه ، فهو فى الغالب فستانها الوحيد الذى يصلح للخروج . رخيص الخامة عادى التفصيل يتدلى فى غير تناسق حول ساقيها النحيلتين ، وحذاء قديم ملتوى الكعب مشقق الجلد ، اذ هى من تلك الطبقة

التى يجب أن تلبس حذاء بكعب دون أن يكون معها ثمنه .

مائلة فى وقفتها بعض الشيء بسبب الطفل الثالث الذى تحمله على ساعدها اليسرى ، مغمض العينين تتدلى رأسه فوق كتفها . فرفعت يدها تصلح من وضع رأسه وتحسستها فى حنان ، يد مقصوصة الاظافر وبغير طلاء ، لن ينفعها الطلاء والاظافر المدببة فى مرط الغسيل ومسح البلاط ودعك الحلل .

ثلاثة اطفال فى خمسة اعوام ما لم يكن الرابع قد مات ، واحتمال كبير لنطفة جديدة تختمر فى هذه اللحظة فى اعماق الجسد النحيل ..

فى صبر عابس تنظر الى بعيد فى ترقب للاوتوبيس المنشود ، لم تنظر حولها مرة واحدة ، أغلب الظن أن المناظر المحيطة بها تزعجها ، منظر الرائحات والغاديات فى الفساتين الحلوة والبنطلونات والاحذية الجديدة اللامعة .

ربما كان موظفا فى الدرجة الثامنة ـ زوجها ـ أو تاجرا صغيرا أو سائق الاوتوبيس الذى تنتظره .. ولسبب ما يخيل الى انه يجب أن يكون أسمر الوجه وبشنب ، ومقاس حذائه أربعة وأربعون . بعد الغروب على رصيف القهوة والغابة الطويلة بين شفتيه يشفط منها أنفاس المعسل ، ونكتة بذيئة يقولها أحد الجلساء فيضحك ويشرق من الدخان فيسعل ، ثم يبصق على الرصيف ويدعك الارض بحذائه الكبير .

والبيت غير بعيد حيث تنتظره ربة البيت ، بعد أن أعدت عشاء مكونا من الجبنة البيضة وقوطاية وخيارتين . ثم تجلس فى البلكونة التى أرجو الا تكون مطلة على

زقاق مزدحم صاخب بأصوات الباعة والميكروفونات . مثل هذا الزقاق فى ظنى سوف يخنق صاحبة هـذا الوجه الشـاحب الحساس . فلتكن مطـلة على مكان فسيح حتى ولو كان مجرد خرابة ، وحتى لو كانت فى بعض نواحيها مبللة بطفح المجارى .

وحيث تجلس فى البلـكونة لا أشك فى انه يوجد فوق رأسها حزمة ثوم معلقة على الحائط ، وكرسى خيزران قديم يزيق تحتها كلما تحركت بالطفـل الذى ينام على حجرها وهو يأكل ــ كما لابد انها تقول لنفسها ــ أرزا بلبن مع الملائكة .

وهى قطعا تسمع صوت سعاله على السلم قبل أن يدخل ، وبينما يخلع ثيابه فى الحجرة الداخلية ليلبس الجلباب الابيض الفضفاض . ثم سوف يفرش على أرض البلـكونة فروة خروف قديمة ويمدد قدميه على البلاط قائلا انه ساقع وحلو . وفى الظلام صوت قرشه للخيار مع الجبنة البيضاء ، حتى يمتلىء فيرفع القلة الى فمه ويقربع ، توطئة لان يسند بطنه بيده ويتجشأ وهو فى خيالى من النوع الذى يبـــدأ الحكاية بقوله لها ايه الحلاوة دى يابت ؟ ثم يمد يده الى ما تيسر من لحمها ، وقبلة لزجة وطفل جديد .

والطفل الحالم صرخ فزعا حين جرت به أمه نحو الاوتوبيس الذى وصل . فما أدرى كيف نجحت فى أن تحشر الطفلين فى الزحام ، ولا كيف نجحت فى أن تتعلق بالاوتوبيس بيد واحدة . وتحرك الاوتوبيس وهى لاتزال على السلم بالطفل الباكى ، لم ينقذها من السقوط فى أغلب الظن سوى ذلك الافنـدى الشـهم الذى تعلق وراءها على السلم ليسندها من الخلف .

فهرس

صفحة

البحث عن اله

الفراعنة والجنس

سقوط امون